Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

توفيق الحكيم

زهرة العمر

الطبعة الثانية

الناشــــر

مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميزت : ٤٢٧٧

893.7H127
Z7

18527F

كتب توفيق الحكيم

التى نشرت فى اللغة العربية

محمد	الطبعة الاولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) الطبعة الثانية : (مطبعة المعارف عام ١٩٣٦)
شهر زاد	الطبعة الاولى : (مطبعة دار الكتب عام ١٩٣٤) الطبعة الثانيه : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)
أهل الكهف	الطبعة الاولى : (مطبعة مصر عام ١٩٣٣) الطبعة الثانية : (مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٣) الطبعة الثالثة : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٠)
عودة الروح فى جزئين	(مطبعة الرغائب عام ١٩٣٣)
أهل الفن	(مطبعة دار الهلال عام ١٩٣٤)
مسرحيات توفيق الحكيم	المجلد الاول : ويشمل قصص : سر المنتحرة نهر الجنون ، رصاصة فى القلب، جنسنا ، الطيف ، (مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٧)

« تابع » كتب توفيق الحكيم

التي نشرت بالعربية

القصر المسحور
بالاشتراك مع الدكتور طه حسين بك
(مطبعة دار النشر الحديث عام ١٩٣٦)

مسرحيات توفيق الحكيم
المجلد الثاني : ويشمل قصص . الخروج من الجنه أو الملهمة. أمام شباك التذاكر. الزمار . حياة تحطمت .
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)

يوميات نائب في الأرياف
الطبعة الاولى :
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)
الطبعة الثانيه لحساب وزارة المعارف العمومية :
(مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر عام ١٩٣٧)

عصفور من الشرق
الطبعة الاولى :
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)
الطبعة الثانيه
(مطبعة التوكل عام ١٩٤١)
الطبعة الثالثه :
(مطبعة التوكل عام ١٩٤٣)

تحت شمس الفكر
الطبعة الاولى:
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)
الطبعة الثانيه :
(مطبعة التوكل عام ١٩٤١)

« تابع » كتب توفيق الحكيم

التي نشرت بالعربية

تاريخ حياة معدة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)

عهد الشيطان
الطبعة الاولى :
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨
الطبعة الثانيه :
مطبعة التوكل عام ١٩٤٢

براكسا أو مشكلة الحكيم
مطبعة التوكل عام ١٩٣٩

راقصة المعبد
الطبعة الاولى :
مطبعة التوكل عام ١٩٣٩
الطبعة الثانيه :
مطبعة التوكل عام ١٩٤٠

نشيد الأنشاد : مطبعة مصر عام ١٩٤٠

حمار الحكيم
الطبعة الاولى :
مطبعة التوكل عام ١٩٤٠
الطبعة الثانيه :
مطبعة التوكل عام ١٩٤٢

«تابع» كتب توفيق الحكيم

التى نشرت بالعربية

سلطان الظلام
الطبعة الاولى :
مطبعة التوكل عام ١٩٤١
الطبعة الثانيه :
مطبعة التوكل ١٩٤٢

من البرج العاجى : مطبعة التوكل عام ١٩٤١

تحت المصباح الاخضر
مطبعة التوكل عام ١٩٤٢

بجماليون : مطبعة التوكل عام ١٩٤٢

سليمان الحكيم : مطبعة التوكل عام ١٩٤٣

زهرة العمر
الطبعة الاولى :
مطبعة التوكل عام ١٩٤٣
الطبعة الثانيه :
مطبعة التوكل عام ١٩٤٤

كتب توفيق الحكيم

التى نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد	ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج ليكونت عضو الاكاديمية الفرنسيه .
عودة الروح	ترجم ونشر بالروسيه فى ليننجراد عام ١٩٣٥ . وبالفرنسيه فى باريس عام ١٩٣٧ .
يوميات نائب فى الارياف	ترجم ونشر بالفرنسيه عام ١٩٣٩ بمقدمة للدكتور حافظ عفيفى باشا . (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانيه)
أهل الكهف	ترجم ونشر بالفرنسيه عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت مدير دار الآثار العربية .
عصفور من الشرق	ترجم ونشر بالفرنسيه عام ١٩٤١

«تابع» كتب توفيق الحكيم

التى نشرت بالعربية

سلطان الظلام
الطبعة الاولى :
مطبعة التوكل عام ١٩٤١
الطبعة الثانيه :
مطبعة التوكل ١٩٤٢

من البرج العاجى : مطبعة التوكل عام ١٩٤١

تحت المصباح الاخضر
مطبعة التوكل عام ١٩٤٢

بجماليون : مطبعة التوكل عام ١٩٤٢

سليمان الحكيم : مطبعة التوكل عام ١٩٤٣

زهرة العمر
الطبعة الاولى :
مطبعة التوكل عام ١٩٤٣
الطبعة الثانيه :
مطبعة التوكل عام ١٩٤٤

كتب توفيق الحكيم

التى نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد	ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج ليكونت عضو الاكاديمية الفرنسيه .
عودة الروح	ترجم ونشر بالروسيه فى ليننجراد عام ١٩٣٥ . وبالفرنسيه فى باريس عام ١٩٣٧ .
يوميات نائب فى الارياف	ترجم ونشر بالفرنسيه عام ١٩٣٩ بمقدمة للدكتور حافظ عفيفى باشا . (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانيه)
أهل الكهف	ترجم ونشر بالفرنسيه عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت مدير دار الآثار العربية .
عصفور من الشرق	ترجم ونشر بالفرنسيه عام ١٩٤١

مقدمة

هذه رسائل حقيقية كتبت بالفرنسية فى ذلك العهد الذى يسمونه « زهرة العمر » . وهى موجهة إلى مسيو « أندريه . . . » الذى جاء وصفه فى كتابى « عصفور من الشرق » . وقد بدأنا نتراسل بعد مغادرته « باريس » للعمل فى مصانع « ليل » بشمال فرنسا . ولبثنا على ذلك إلى ما بعد عودتى إلى مصر والتحاقى بالسلك القضائى . ثم انقطعت بيننا الرسائل والأخبار . وانتهى كل شىء ، وجرفنا تيار الحياة ، كل فى واديه . . . فلم نلتق بعد ذلك إلا فى عام ١٩٣٦ ، إذ سافرت لتمضية الصيف فى فرنسا . . . وكنت قد تركت القضاء وصرت

مديراً لإدارة التحقيقات بوزارة المعارف ، ونشرت فى الأدب عدة كتب . . . فوجدت « أندريه قد أصبح رجلا مهماً ذا مركز مستقر فى الصناعة الفرنسية . ووجدت زوجته « جرمين » على عهدى بها ، لم ينل الزمن كثيراً من سالف جمالها . ولم أر للأسف طفلهما الصغير « جانو » فقد غدا بالطبع شاباً يسعى مع الطلاب فى الحى اللاتينى ، ويشاركهم تلك الحياة الصخبة النشيطة الهوجاء .

وتحدثنا ملياً فيما فعلته الحياة انا . . . وعند ذاك قادنى الصديقان من يدى إلى مكتبة الدار برياشها التى لمست فيها حسن ذوق « جرمين » المعروف . وأشارا بزهو من خلف الزجاج إلى نسخة فاخرة التجليد من كتاب لى ترجم وقتئذ إلى الفرنسية ونشر فى باريس مقرظا بقلم كاتب شهير من أعضاء الأكاديمية . وقالا لى فخورين : « هذه ثمرة جهادك الذى كنا من شهوده . . . ! » ثم جعلنا نتذاكر الماضى ؛ ونحن نتناول الشاى .

فنهض أندرية بهدوء وصمت ، واختفى لحظة ، ثم عاد إلينا يحمل صندوقا صغيراً وهو يقول باسما : لم يكن من السهل أن ننساك أو ننسى تلك الأيام ، وهذه رسائلك عندنا نلمح فيها طيفك ماثلا أمامنا . أليس كذلك ياجرمين ؟ . . » فمددت يدى إلى الصندوق على الرغم منى ، واختطفت بحركة غريزية إحدى الرسائل . وطفقت أقرأ وأقرأ . . . حتى نسيت نفسى ومن حولى والشاى الذى أمامى . . . ولم أفطن إلى تنبيه الصديق وزوجه . . ولم أر سوى شىء واحد : هذا شبابى حقا . . . قد انتفض ماثلا لعينى . . كيف أتركه لكما ؟ . . وتنازعنا الرسائل . فحسمت جرمين النزاع آخر الأمر بقولها : إنا نثق بوعدك وكلمتك . . . خذ رسائلك اقرأها كما شئت فى شهر أو شهرين على أن تردها إلينا بعد ذلك . فوعدت . وحملت رسائلى برفق وحرص وحنان كأنى أحمل الرماد المتخلف عن « زهرة العمر » الذابلة . . .

* * *

وأنستني شئون ذلك الصيف كل شيء . فلقد شغلت بمن قابلت من الأصدقاء فى جبال الااب . وبما شاهدت من مظاهر الفن . . فى سالزبورج ، عن التفكير فى هذه الرسائل ، فلم أفتحها إلا بعد عودتى إلى مصر . فكنت كلما خلوت إلى نفسى أطالع رسالة أو رسالتين وأنا أبتسم ؛ ثم أطوى ما قرأت وأنا أفكر فيما كان وما هو كائن . . . لقد أصبحت هذه الرسائل لازمة لى فى وحدتى : ومرت الشهور فى أثر الشهور . ولم أنس وعدى وكلمتى . . ولكن ما ذا أصنع ؟ عندئذ خطر لى أن أنقل هذه الرسائل إلى العربية وأحفظها لنفسى . ولم أر بأسا بعد ذلك من رد الأصل الفرنسى . فأخذت فى نقلها ببطء كلما وجدت من الوقت فراغا . ولم أردها الى صاحبها إلا عند ما سافرت إلى فرنسا لتمضية الصيف عام ١٩٣٨ .

وهكذا بقيت عندى الصورة العربية لهذه الرسائل أجيل فيها النظر من حين إلى حين . . . وأنا أحرص عليها وأضن بها ولا أرضى أن تقع عليها عين غير عينى . . . فهذا شىء لى . . وهى جزء منى . . . وقطعة من حياتى . . . هى زهرة عمرى . . .

☆ ☆ ☆

واندلعت نيران الحرب الأخيرة . . . وانهارت فرنسا . فتذكرت الصغير « جانو » . . . لاشك عندى فى أنه اشترك فى هذه الحرب . . . ومن يدرى أهو فى القتلى أم فى الأسرى أم فى الجرحى ؟ . . إنى لم أزل أتخيله طفلا فى الرابعة يلعب أمامى فى المطبخ بمنزل جدته فى « كوربفوا » من ضواحى باريس . . وأنا جالس إلى المائدة أتناول فطورى وأقرأ كتاب الجمهورية لأفلاطون . . . وهو يصيح بصوته الملائكى

CODE NO. 136

ORDER NO. 18527 F

ACQUISITIONS DEPARTMENT
COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
535 WEST 114th ST. - NEW YORK 27, N. Y.

L. C. CARD NO.

G. L.

Hakim, Taufiq al-
Zahrat al-'umr. Cairo, 1944. 307p.

JUN 11 1957

DEALER
xxxxxxxx Senouhi

RECOMMENDED BY
M. Bravmann

UNIT LIST PRICE
30 Piast.

DATE ORDERED
12.10.56

TITLE NOTED ABOVE HAS BEEN ADDED TO LIBRARY

RIDER COPY

الصغير رافعاً سيفه الزائف ومصوباً مدفعه الصفيح نحو أعداء وهميين من « البوش » الألمان . . . آه . . . لقد دار الزمان . . وأصبح « جانو » شاباً قوياً وقد حارب الألمان بالفعل . . . ويالها من حرب ! ! .

أما صديقى أندريه وزوجته جرمين فأين هما الآن ؟ أهما بخير ؟ أم هما على ولدهما « جانو » متفجعان ؟ ! . اللهم لاتفجعهما فى لدهما وهو فى زهرة عمره . فقد كانا رفيقى شبابى ، والإناء الذى أحاط بزهرة عمرى . . .

* * *

واليوم وقد كادت تذبل زهرة العمر بعد أن جاوزنا الأربعين . اليوم بعد أن اعتزلت وظائف الحكومة ، ونزلت عن زخارف المجتمع ، وانقطعت لأهيم كما أشاء فى هيكل « أبو لون » . . . مكرساً بقية حياتى للأدب والفن . . . فانى أرجع بصرى القهقرى لأرى أيام

الكد فى سبيل التكوين الفنى . . ولقد أدهشنى حقا ما رأيت فى رسائلى هذه : لطالما قاومت وكافحت فى سبيل التجرد والتحرر من كل مايشغلنى عن الفن . . . وها أنذا اليوم قد انتصرت . . . نعم، لقد انتصرت . فأنا الآن للفن وحده . ولا أرجو الا أن يكون هو أيضاً لى قليلا قبل أن ألفظ النفس الأخير .

وبعد . . . فلقد رضيت اليوم أن أنشر هذه الرسائل ، تذكاراً للصديقين أندريه وجرمين ، وتقديراً لولدهما الشاب الباسل « جانو » وإيثاراً لقرائى على نفسى . قرائى الخلصاء الذين قد يعنيهم أن يطلعوا على صفحة من حياتى . على أن من واجبي أن أشير إلى أنى وجدت مع الأسف أكثر هذه الرسائل غير مؤرخ . ولم يكن فى مقدورى ترتيبها على حسب التواريخ ، ولا حتى على حسب الحوادث ، ترتيباً دقيقا . ولعل ترتيبي هذا هو

أقربها إلى الحقيقة والمنطق . فاذا بدا شيء من الاضطراب فى تسلسل الوقائع أو شيء من التكرار فى بعض التفاصيل فان ذلك راجع ولا ريب إلى طبيعة الرسائل فى ذاتها , وقد كانت رسائل خاصة لم يخطر قط على بال أحد أنها قد تقدم للنشر يوما . والرسائل الحقيقية ليست عملا مؤلفا تأليفا حتى يستباح فيها التنقيح والحذف والتهذيب ، فان مزيتها الوحيدة هى التشجع على نشرها بخيرها وشرها ، وإنى — توخيا للصدق — لم أحذف حتى ما كان يحسن حذفه من عبارات أو فقرات أوحوادث قد يعتبر نشرها ماسا بشخص المرسل أو المرسل إليه ..

ت . ١ .

باريس — شارع بلبور فى . . .

عزيزى اندريه :

صدقت فراستك. الخيال قد أضاعنى يا اندريه.

أنا شخص شقى . وليس الشقاء هو البكاء . وليست السعادة هى الضحك . فأنا أضحك طول النهار ، لأنى لا أريد أن أموت غارقاً فى دموعى . أنا شخص ضائع مهزوم . فى كل شىء . وقد كان الحب آخر ميدان دحرت فيه . وإذا كنت تسمع من فمى أحيانا أناشيد القوة والبطولة فاعلم انى أصنع ذلك تشجيعاً لنفسى ، كمن يغنى فى الظلام طرداً للفزع .

ها أنت ذا اليوم ترانى أكتب إليك عن القوة

والشخص القوى ، وأنا بهذا أحاول أن أوهم نفسى انى قوى . انى أشعر براحة وعزاء إذ أتحدث فى وحدتى عن القوة . ويخيل إلى لحظة انى ذلك الشخص الذى عناه إبسن بقوله : « الرجل القوى هو الرجل الوحيد » ! . . كفى كلاما عن نفسى . انها لا تستحق أن نتحدث عنها أكثر من ذلك . أحدثك الآن عن أحوالك أنت وعن خطابك الذى صببت علىّ فيه كل لعناتك . قبل ذلك أقول لك انى مغتبطٌ لرضاك عن عملك الجديد بمصنع «ليل» أما اكفهرار الجو المستمر فى هذه المدينة الشمالية فهو خير على كل حال من اكفهرار وجه الحياة. أخبرك ان آخر مرة رأيت فيها جرمين كان مساء الأربعاء الماضى حيث تناولنا معاً العشاء بصحبة جانو الصغير. وسأراها يوم الأحد القادم . فهى لا تستطيع مقابلتى قبل ذلك اليوم الذى تعطل فيه من مصنع كوربفوا . وليس بى

حاجة إلى أن أؤكد لك شوقها الشديد اليك . هنيئاً لك حب زوجك وولدك . النقود وصلت . ثلثمائة من الفرنكات بالتمام . أشكرك وأرجو أن لا تستدين من غيرى ولا منى الا للضرورة . فانى اعرف فيك الاسراف والتهور احيانا . وحب مغازلة النساء الجميلات . يجب ان ترعوى والا اخبرت جرمين بكل شىء ... ؟

باريس — شارع بلبور ف ...

عزيزى اندريه :

أشكر لك خطابك . وآسف لما سببه لك خطابى من حزن لأجلى . ما كان لى الحق فى أن أضيف مابى الى ما بك . فهذا حمل ثقيل لا أرضاه لك . انى أؤنب نفسى الآن . لقد ألجأها الضعف اليك لتتوكؤ عليك . وفاتها ان فى ذلك ازعاجا لك . قاتل الله الضعف . ومع ذلك ، . . . لولا هذا الضعف الانسانى ما وجدت العواطف الانسانية الجميلة التى تنتج أحيانا الأعمال الانسانية العظيمة . ان الضعف هو أيضا مظهر جمال فى بعض الاحيان

لا يجب أن ننسى ذلك . انه جمال الانسان الذى يمتاز به عن إله قوى لا رقة فيه ولا شعور . لماذا نعد دائما الضعف البشرى نقيصة ؟ ما دمنا قد وصمنا به إلى الأبد فلنحترمه أحيانا ولنستثمره ولنحوله إلى فضيلة من فضائل البشر . بغير هذا فان الحياة لن تحتمل . أترانى أعزى نفسى يا اندريه بهذا الهراء من الكلام ! . . أترانى أقلب « الحقائق » كى أرى الدنيا ملأى بالحسنات والفضائل ، خليقة باحترامنا جديرة بتحملنا الآلام فى سبيل المكث فيها ؟ لاتضحك ولا تسخر ولا تتهمنى بالحمق . فانك قد تحترمنى قليلا وتدهش لقوة احتمالى . إذا عرفت مبلغ ماتجمع على رأسى من شقاء . ومع ذلك ما زلت أحاول انتزاع ابتسامة من شفتى الحياة . لا أريد أن أحدثك عن نفسى أكثر من ذلك . لكن . . . فلأحدثك قليلا لتعلم انك بالقياس إلى أسعد

المخلوقات طراً . فأنت الآن رجل ناجح فى حياتك تجد من يقدر عملك وجهدك وينقدك عليه أجراً معقولا ، والمستقبل أمامك جلى كالنجم اللامع فى السماء الصافية . وقد قلت لى ان مصانع « ليل » تتخاطفك ، وانك ترقى درجات العمل الأولى سريعاً . ثم أنت فوق ذلك رجل محاط بالحب والعطف من زوجك وولدك . أنت محب محبوب . ومن تحب تحرص عليك وترى فيك المثل الأعلى ، لا للرجولة وحدها والبطولة ومكارم الأخلاق بل للجمال أيضاً . لكم أدهشتنى جرمين ذات يوم وأنا أريها صورة « رودولف فالنتينو » فى إحدى الصحف قائلا لها : « إليك صورة أجمل رجل فى العالم » فقد قالت للفور : « اندريه أجمل منه . ألا توافقنى على ان اندريه أجمل منه ؟ » ماذا تريد أكثر من ذلك ؟ وماذا يريد انسان أكثر من ذلك ؟ انك لا تعرف

الشقاء . أما أنا فأعرفه . انه فجيعة الانسان فى آماله . نحن . . . انما نعيش داخل آمالنـا . فاذا اندكت فنحن كالنمـل الشارد فى الشتاء العـاصف . لا تنظر إلى بعين سخريتك يا اندريه . ولا تظن انى أعنى الحب . فلو انه هو الذى انهدم وحـده عندى لما حزنت كثيراً . ولـكن كل شىء انهدم يا اندريه . لم يعد لأيامى مذاق . فهى كالماء القراح أجرعه على غير ظمأ . والمستقبل أمامى محاط بالضباب . يخيـل الى انى هويت قبل الأوان كالثمرة التى تسـقط من الفرع قبل النضوج . أمامى برقية من أبى المسـكين يقول : « ابرق لنا فى حالة نجاحك » . كلمة النجاح غريبة على اذنى الآن . أأنا استطيع ان انجح فى شىء ؟ ان اسمى كما تعلم مقيد منذ زمن بجدول المحـامين فى بلادى . انى فى عرف القانون محام . ولكن أى محام ؟ ! لقد كانت فجيعة لأبى المسـكين أيام ان كـان يسمع

ويرى انى انسى صفتى كمحام ، وانحشر فى زمرة الممثلين . أو اولئك الذين يسمونهم عندنا « المشخصاتية » . والحق انهم فى مصر ليسوا بعد من الطوائف المحترمة . لقد كان ملحن رواياتى (كامل الخلعى) يجلس معى على قارعة الطريق « يدندن » ويلحن وهو عارى القدمين إلا من « قبقاب » خشبى . . . تلك كانت بدايتى الفنية والأدبية . . . فى عين الوقت الذى كان غيرى يبدأ حياته الأدبية بالكتابة السياسية ، فيظفر سريعاً بالشهرة والاحترام . ولو انى فعلت ذلك لرضى عنى اهلى بعض الرضا . فالفرق شاسع فى مصر بين خدمة رجال السياسة وخدمة رجال « التشخيص » ! وها أنذا لم اظفر بشهرة ولا ذكر بينما لمعت أسماء أولئك الذين اختاروا الطريق الآخر المحترم . . . فسهل عليهم ايضا بعدئذ كما رأيت ان ينتقلوا منه

الى الأدب . محتفظين بأثواب التجلة ومظاهر التقدير . أما أنا الذى اخترت الفن من البداية صرفاً صريحاً فلا أستطيع ان انتقل الى شيء . . . غير الانحطاط الاجتماعى . ولقد خشى والدى المتوجع ان يجرفنى التيار عن حياة القضاء التى عاشها بشرف ، فأشار عليه المخلصون أن يقصينى عن مصر فترة من الزمان . . . فارسلنى كما ترى الى هنا لعلى أسلو الفن وانصرف إلى مايتمناه لى من حياة قانونية قضائية محترمة . فماذا أنا قائل له الآن ؟ وبماذا أرد على برقيته ؟ ؟ . . ثم أمامى خطاب ممن أحببت وأوهمتنى بنعيم دام اسبوعين ، تكشف لى فيه عن المهزلة . ولم تترفق فتترك لى حتى ذكرى تلك الأيام القليلة سليمة جميلة . لقد شاءت أن تسترد كل شيء حتى الأوهام والأحلام . فجردتنى منها بعبارة واحدة : « أتمنى انى ما عشت قط هذين

الأسبوعين » يا إلهى إلى هذا الحد ! وها هى ذى تغنى اليوم لرجوع كل ودّ بينها وبين حبيبها الحقيقى . اسمع غناءها من نافذة حجرتى فأضحك ... لكن أى نوع من الضحك ! ثم أمامى قصاصات من نقد صحف مصر لرواياتى التى تمثل فى القاهرة . فاذا أنا موضع السخرية . ودراساتى التى لا تؤدى الى نتائج . وشراهتى فى المعرفة التى تسبق قدرتى الذهنية وقوتى الجثمانية ووقتى المادى . كل شىء حولى يهدمنى هدماً . . ؟

باريس — شارع بلبور فى ...

عزيزى اندريه :

معذرة لابطائى عليك فى الرد . فقد أصبت ببرد وسعال أقعدنى فى الفراش أياماً . وأنتهز هذه الفرصة لأبلغك شكرى الخالص لجرمين على قلقها وعنايتها . . . كما أخبرك أيضا انها دعتنى بعد ذلك إلى وليمة عشاء بمسكنها حيث نصبت المائدة إلى جوار المدفأة . لن أنسى مطلقا ذلك الحساء اللذيذ (كريم فرميسيل) . أهنئك باستكشافى فى جرمين ، فضلا عن ذكائها وأدبها وخلقها . ذلك الفن الجميل المفيد : فن الطهى . . . ثق انها طاهية من الطبقة الأولى .

انها تستحق « الكوردون بلو » . هل ذقت فطـير الأرز من صـنعها ؟ وا أسفاه ! كان بى مايزال أثر المرض فلم أهجم على هذا اللون الا هجوماً رفيقاً على الرغم منى . أكرر شكرى لجرمين على هذه الوليمة وعلى تلك الغـلالة الحريرية التى اعارتنى إياها لأجعلها حول عنقى خوف البرد . جانو يقبلك وقد قبلته عنك . . . ؟

باريس — شارع بلبور فى ...

عزيزى اندريه :

لم اكتب اليك ولا ادرى لماذا لم تكتب إلى انت ؟ لعلك كنت تنتظر ردى . وردى لم اجد له قيمة ولا فائدة لأن كتابك الأخير لم يكن فيه مايوجب الرد . أما جرمين فهى على ماتروم . وكذلك جانو . وقد قابلت جرمين منذ ثلاثة ايام . وليس عندى ما اقوله . أما انت فقد اثبت لى ان مقامك فى « ليل » بعيداً عمن تحب قد كشف عن رقة فى مشاعرك لا أعهدك بها خليقاً . اخشى ان اقول ان قدمك كادت تنزلق إلى شاطىء الخيال الذى كنت

تسخر منه . لاتهزأ قط بالحب والخيال . ها أنت ذا تستطيع أن تحدثني اليوم عنهما اكثر مما استطيع أنا . نعم ؛ لقد كان يخطر لى أحيانا ان الحب هو العمود الفقرى للكون . وان الله كى يقيم القيامة وينهى الحياة لن يأمر اسرافيل بنفخ الصور (كما يقولون عندنا) بل سيأمر « الموت » ليهوى بفأسه على « الحب » وبموت الحب فى الأرض ينتهى العالم . تصورت ذلك ذات ليلة وأنا فى فراشى أطالع تاريخ المذاهب الاقتصادية ؛ ولقد تركت أوراقها تسقط من يدى لأغرق فى تفكير عميق حول مسألة بعيدة كل البعد عن تاريخ المذاهب الاقتصادية . على انى الآن أنقض هذا الخاطر . ويخيل إلى ان الحب فى هذا العالم عضو سوف يتمكن العلم الحديث من بتره واستئصاله دون أن تخسر الانسانية شيئا كبيراً . مارأيك يا اندريه ؟ أريد رأيك فى هذا لأن رأيك

ذو قيمة كبرى . فهو صادر عن منطق طالما أنكر سلطان الخيال ! أما أنا فقد أنكرته أو على الأقل سائر فى طريق إنكاره والايمان بالواقع . الدليل : انى أرغم نفسى الآن على الاستعداد للتقدم لامتحان الدكتوراه فى القانون . إرضاء لأهلى ... لاشىء يعوقنى عن النجاح غير طبيعتى التى خلقت للضياع فى الفضاء لا للوقوع فى قيود الدكتوراه وحدود المعارف الجامعية . نفسى قد خلقت لتقرأ ما تريد وقتما تريد . لتحيط علما بكل شىء وتسعى الى تأمل كل شىء وتستبقى فى الذاكرة ماتشاء وتنسى ما تشاء . اما تتبع دراسة منتظمة لجزء معين بالذات من العلوم يستذكر استذكاراً ليستفرغ بعد ذلك استفراغا بين يدى ممتحنين ومحلفين . . ؟ ! هنا كل المشكل يا صديقى اندريه ...؟

باريس — شارع بلبور فى ...

عزيزى أندريه :

وصلتنى رسالتك وأعجبت جداً بتلك الطريقة المدهشة التى جعلتنى اعتقد ، ولمدة خمس ثوان فقط ، انى امتلك ثلثمائة فرنك . ولما يمض الوقت الكافى لشكر الله وشكرك . بل لما يمض الوقت الكافى للتفكير فى مصدر هذه النقود . لقد أعطيتنى الوقت الكافى لأفرح قليلا . ثم لم تمهلنى وصدمتنى بالواقع : وهو ان تلك الثلثمائة من الفرنكات ليست فقط « غير ملكى » انما هى « طعم » لاستجرار مائتين من جيبى ! واهاً لك أيها الشيطان ! على انى

غير حاقد عليك ولا ناقم . فحظك حسن . إذ قبل ورود خطابك كانت نفسى مستعدة لتقبل مثل هذا الخطاب . وتفصيل الأمر انى البارحة قابلت جرمين وتحدثنا فى أمور شتى فهمت من خلالها ان قسط إيجار مسكنها سيحل فى منتصف هذا الشهر . ومع ان هذا الأمر لم يكن موضع اهتمام لديها ولا لدىّ أثناء الحديث . الا انه جعلنى افكر بعد مغادرتها فى مصدر النقود ، وفى حالتك وما يجب فعله إذا اعلنت إفلاسك : ولما كنت اعرف من علم الاقتصاد السياسى ان الضرائب غير المباشرة عند أصحاب المذهب الزراعى تقع غالباً وأخيراً على رأس المالك العقارى . فقد خطر لى انى أنا فى هذه المسألة بمثابة المالك العقارى . بمعنى ان كل إفلاس أو كارثة لابد أن تقع ويجب أن تقع على رأسى غالباً وأخيراً .

هذا هو سر تقبلى رسالتك بصدر رحب على غير

العادة . وقد نفذتها أو سأقوم بتنفيذها بلا تضجر ولا تبرم . فأنا أحب ان تعرف انى لا أثور ولا أعنف إلا عند عدم اقتناعى بصواب ابواب الانفاق . اسرافا منك أو جنونا أو اعتماداً على سهولة الاقتراض.

وبعد فانى سأرى جرمين مساء الجمعة القادم كى نذهب معاً لمشاهدة رواية جديدة فى مسرح الحى، وأرجو منك ان تدع جرمين تفهم ان صلتى بها لا تستمد قوتها من صداقتك . انما هى صداقة اخرى مستقلة تقوم على احترامى لشخصها وتقديرى لذكائها . فأنا لا أحب لجرمين ان تفهم انى موفد من قبلك لأخرجها للنزهة بين آن وآن . ولا انى اتكلف هذا قضاء لواجب من الواجبات . على انى قد ضحكت كثيراً وانت تخبرنى فى خطابك انها لن تنسى ذلك التفانى منى فى خدمتها وانها لاتشكو إلا امراً واحداً : هو انى لم احاول قط مغازلتها ! يا لظرف

الباريسات ! أوكانت تظن انى وأنا الشرقى أجرؤ على ذلك فى غيبتك ؟ أفهمها انى سأحاول ذلك مرة فى حضرتك ، لتعلم انى اسست ممن يستهين بجمالها ، ومع ذلك فهى لاتجهل أى سرور أجنيه وفائدة لاتقدر أن يتاح لى لقاؤها من حين إلى حين ، فانك لن تتصور مقدار ما يحدثه جلوسى اليها من نتائج فكرية . انك تعرف مقدار فائدة المرحوم إيفان لى وفائدة الشاعر البارناسى الهرم . . .ها أنت ذا ترى كل شىء يدفع ثمنه فى هذا الوجود . وان ماتحسبه خدمات أقدمها اليها لا يعدل ما تؤديه هى إلى . وما تؤديه أنت أيضاً ، من فوائد إلى شخصيتى وهى فى سبيل تكوينها ، لاتسخر ولا تتهمنى بالاسراف فى الخيال . كلا يا اندريه ، غداً تزول الحاجات المادية ولن يبقى لنا غير ذلك الربح المعنوى الذى اكتسبه أحدنا بمعرفة الآخر .

وختاما أقول لك ان أحوالى التى تريد أن تصغى إلى أنبائها سوف أحدثك عنها فيما بعد . وأما رواياتى التى كتبت منها قليلا فقد أهملت شأنها منذ شهور ، وقد انتهى رأيى إلى استحالة المضى فيها وأنا فى هذه البيئة الأوروبية العاصفة . هذه البيئة الحديثة وما يسود فيها من جو « المودرنزم » يفسد حسن فهمى للأشياء ويحوله دون تمرفى حقيقة شخصيتى فى الفن والأدب . أنا أحب « المودرنزم » وأخشى أن أقول لك انى أقلد أساليبه على الرغم منى . وهذا بالذات ما يخيفنى ويدعونى إلى التريث حتى تهدأ عاصفة هذا الفن الحديث ونعرف إلى أى حد يستطيع أن يثبت إلى جانب الأساليب التى اعترف بها التاريخ . لقد شاهدت فى المسارح أخيراً قصصاً تمثيلية على طراز النزعة الحديثة مثل قصة au grand large . كما شاهدت قصص ما قبل الحرب

مثل «الماضى» لبورتوريش و «الجدول» لبيير فولف
واطلعت على رأى النقاد فى ذلك . أتدرى ماذا فضل
النقاد ؟ انهم فضلوا قصص (ماقبل موجة المودرنزم)
ورأوها هى الخليقة بالبقاء ...؟

باريس — شارع بلبور فى ...

عزيزى اندريه :

لست أدرى أمن سوء حظى أو من حسنه انى أعيش الآن فى أوروبا وسط هذا الاضطراب الفكرى الذى لم يسبق له مثيل . فهذه الحرب الكبرى قد جاءت فى الفنون والآداب بهذه الثورة التى يسمونها « المودرنزم » فكان لزاما على أن أتأثر بها . ولكننى فى الوقت ذاته شرقى جاء ليرى ثقافة الغرب من أصولها . فأنا موزع الآن ، كما ترى ، بين « الكلاسيك » و « المودرن » ، لا استطيع ان اقول مع الثائرين فليسقط « القديم »

لأن هذا القديم أيضا جديد علىّ . . . فأنا مع أولئك وهؤلاء . . . انى اخرج مثلا من متحف اللوفر متحمساً لأعمال « تسيان » و « دافنتشى » و « فلاسكز » و « جويا » و « مملنج » و «فان ديك » لأدخل بعد ذلك تواً معرض الخريف أشاهد أحدث لوحات الفن الحديث بألوانها الصارخة « الفاقعة » وخطوطها البسيطة العارية . إن الفكرة المسيطرة على الفن الحديث هى : الفطرة والبساطة . يطلبون فى الفطرة النضارة . ويذهبون فى البساطة إلى حد التركيز . لقد غالوا فى التركيز لدرجة المناداة بفصل عناصر كل فن عن الآخر فصلا تاما . فالتصوير وهو فن الألوان . يجب ان يستغنى عن الموضوع . لأن الموضوع من عناصر القصة . والشعر وهو فن الشعور يجب أن يستغنى عن العقل الواعى (مذهب الدادايزم) ، والموسيقى وهى فن الأصوات يجب ان

تستغنى عن الشعور . والنحت وهو فن الاحجام يجب أن يستغنى عن الافكار . . . الخ . . . وهذا قليل جدا مما جاءت به نظريات « المودرنزم » . ولا أحب الاسهاب فيها لأنى أكره النظريات فى الفن . فالفن عندى خلق إنسانى جميل لا أكثر ولا أقل . وقد يكون فى المودرنزم نفسه . على الرغم من نظرياته . بعض جمال . ولكن ذلك لن يدعونى مطلقا إلى النداء بسقوط « رفاييل » و « لافونتين » و « بيتهوفن » من أجل ثورة تنادى بها طائفة تحاول بأى ثمن الاتيان بجديد . لقد قرأت أخيراً لكاتبة فرنسية « مودرن » تقول عن حركة « المودرنزم » مامعناه : ان بعد عشرين قرنا من حضارة مفعمة بألوان البراعة الذهنية والحذلقة الفكرية وحياة الصالونات والأكاديميات ، غدت الدنيا مثل غانية عجوز مفرطة فى الزينة والبهرج والأصباغ بمقدار

بعث فى النـاس عطشاً إلى عصـور الفطرة الأولى بناسها العراة وإحسـاسها المجرد . وإن قيمة الفن الحديث هى فى أنه يحاول أن يعيـدنا إلى النضـارة الفطرية البدائية وإلى مصادر الالهام الأولى ... » .

قول هذه الـكاتبة صحيح . فان مصادر الفن الحديث ، سواء فى الروح أو فى الأسلوب ، مستمدة حقا من الفنون الأولى مباشرة . إن أثر مصر القديمة ظاهر فى العمارات الحديثـة والنحت الحديث . بل ان الامعان فى طلب الفن الفطرى وصل إلى حد استلهام فن الزنوج . إن أثر الفن الزنجى واضـح فى التصـوير الحديث والموسيقى الحديثة والرقص الحديث .

سأحدثك فى رسالة أخرى عما سمعت أخيراً من موسيقى . إنى لا أترك الآن أسبوعا واحـداً دون أن أذهب إلى قاعة كونسير « بلييل » أو إلى كونسير « كولون » أو « پادلو » . بل إنى أحضر

حفلتين أحياناً فى يوم واحد . ولقد حضرت الأسبوع الماضى ثلاث حفلات موسيقية فى يومى السبت والأحد . فقد أدوا فى الأولى : « ذهب الرين » لفاجنر . وفى الثانية : « السانفونى فانتاستيك » لبرليوز . وفى الثالثة « السانفونى » السابعة لبيتهوفن . سوف أحدثك أيضاً عن الموسيقى الاسبانية وقد حضرت فيها حفلتين : إحداهما للموسيقى هافتلر . كما إنى محدثك عن الموسيقى الروسية بعد أن سمعت للمرة الثانية « سادكو » لرمسكى كرساكوف ... على ذكر « فاجنر » وصداقته المعروفة للفيلسوف « نيتشه » كدت ألمس بنفسى أثر تلك الصلة الفكرية بينهما وأنا أصغى إلى نغمة « سيجفريد » المتكررة ... تلك التى يسمونها الـ Leitmotiv ... إن استخدام « فاجنر » لنغمة واحدة بالذات يطلقها رمزاً لكل

بطل من أبطال «أوپراته» ويجعلها تعود كلما عاد البطـل إلى الظهور ، لتذكرنى بكلمة « نيتشه » : هنالك حادثة متكررة تعود من آن إلى آن فى حياة كل إنسان » ... م

باريس — شارع بلبور فى . . .

عزيزى اندريه :

أرسل اليك ما كتبته من الرواية منـذ شهور وهو كما ترى فصل وشىء من فصل . اقرأهما واخبرنى برأيك . وثق كما أخبرتك أنه ليس فى عزمى مطلقاً أن أتم هذا العمـل رواية كاملة للأسباب التى ذكرتها لك . وأزيد عليها سبباً آخر : انى لا أدرى بأى أسلوب بدئت وبأى أسلوب تختم . فأسلوبى الآن خاضع لتطورات سريعة مستمرة . ولقد سبق لك أن اطلعت على قطعـة « الحلم » التى أرسلتها

اليك وهى تختلف فى أسلوبها عما ستقرأ من هذه الرواية . على ان الذى أرجوه منك هو أن تعيد إلى المخطوطة بعد قراءتها لأني لا أملك نسخة أخرى ...؟

باريس — شارع بلبور فى . . .

عزيزى اندريه :

نفذت طلباتك بالتمام ، وعلمت أن جرمين لم تبطيء عليك فى رسائلها عن قصد سيء . لا تجعل الخيال يضلك أنت أيضاً أيها المتشدق بكلمة « الواقع » ! آه الآن فهمت أنك كنت ظالمى بسخريتك من حبي المنحوس وعواطفى وخيالى ؟ . . لقد انتقم لى القدر !

والآن دعك من تفاصيل الحياة التافهة . حدثنى بخطرات بعيدة عن التفاصيل . خطرات منبعها تفاصيل وليس فيها تفاصيل . ماقيمة التفاصيل

فى هذه الحياة إن لم تكن لاستخراج قوانين عامة أو أفكاراً جميلة ؟ يسرني كثيراً أن أراك قد هدأت لنسترجع فيك « اندريه » الواقعى الرزين المازح.

أما نواحى ضعفى التى أشرت اليها فاني أحب أن أعرفها واضحة جلية وإلا فلست لى بصديق. وأما الموسيقى فقد سمعت فى السبت الماضى (السانفونى دومستيك) لريتشارد ستراوس، و (أغانى الأناضول) لموسيقى تركى هو (جمال راشد). وقد سررت كثيراً بهذه الأغانى لأنى استطعت أن أتنبأ بحالة موسيقانا القومية فى مصر والشرق لو وضعت داخل هذا الاطار الفنى L'orchestration. ويظهر لى أن جمال راشد قصد إلى ذلك. غير أنه فيما يخيل إلىّ قد أسرف فى تقليد الموسيقى الروسية فلم أتمكن من تعرف ملامح الموسيقى التركية فى صميمها إلا فى قطعة واحدة.

ولقد ذهبت أمس (الأحـــد) إلى اللوفر كعادتى. وإنك تعلم لماذا أواظب على الذهاب إلى اللوفر كل أحد. فهذا هو اليوم المخصص للدخول بالمجان. وإنى لأنفق طول يومى هنـاك دون أن أحس مر الوقت. بل إنى أدركت منذ أسابيـع خطأ التوزع بين قاعات المتحف فى يوم واحـد. ذلك شأن المشاهد السريع. أتدرى ماذا أصنع الآن يا اندريه؟ إنى أخصص يوما كاملا للقاعة الواحدة. فأنا لست سائحا متعجلا. إنى أبحث أمام كل لوحة عن سر اختيـار هذه الألوان دون تلك. وعن مواطن برودتهـا وحرارتها. وعن رسم أشـخاصها وبروز أخـلاقهم، واتسـاق جموعهم، وحركـتهم وسكونهم. كل لوحة فى الحقيقة ليست إلا قصـة تمثيلية داخل إطار، لا داخل مسرح، تقوم فيها الألوان مقام الحوار. إنى لأكاد أصغى إلى أحاديث الأبطال

وهم على الموائد فى أفراح « قانا » لوحة « فيرونيز » وأكاد أسمع ضجيج الحاضرين وصياح الشاربين ورنين الكؤوس وخرير النبيذ يفرغونه من دن إلى دن .

إن طريقة إبراز كل هذه الحياة بالريشة لقريب من طريقة إبرازها بالقلم . إن أساس العمل واحد فيهما : الملاحظة والاحساس ثم التعبير بالرسم والتلوين . بل ان الروح أحيانا ليتشابه . لطالما وقفت عيناى طويلا على صفحات ناثر أو شاعر ، وأنا كالمأخوذ ، أخص السطور بيدى لأتبين إن كانت من مداد أو من أثير . ان روح الكاتب أو الشاعر لتشف أحيانا وتخف وتتحرك فى الأجواء بلطف كأنها نسيم راقص ... هذا الشعور ملأ نفسى وبصرى أمام لوحة مثل لوحة « الربيع » لبوتيتشللى التى يصور فيها رقص « الحسان الثلاث » فى غابة البرتقال و « فينوس » قربهن تتبع بيدها وقع الخطى . و « النسيم » من حولهن يعانق

الأزهار . . . أو مثل لوحة موريللو عن « صعود العذراء » وهى فى جمالها الطاهر تخترق السماء وفى ذيلها القمر ومن حولها الملائكة ... ان الشعر والرقص والموسيقى ليتناثر أريجها مجتمعة فى جو مثل هذا الفن العظيم ... ؟

باريس — شارع بلبور فى . .

عزيزى اندريه :

سررت لخطابك الضخم الذى انهلت علىّ فيه طعناً وتقطيعاً وتجريحاً . ولا أستطيع كيف أشكر لك عنايتك بتحليل شخصيتى المنكودة . ومع انك تزعم ان قسوتك كان الدافع اليها الانتقام فهذا عندى لا يغير شيئاً من جوهر الموضوع مادامت النتائج التى وصلت اليها صحيحة . نعم ان خيالاتى الكثيرة التى أحيا بينها تسبب لى تارة الآلام ، كما تقول ، وتارة الأحلام التى لن تتحقق يوما . هذا صحيح . وأكثر منه يا اندريه ان خيالى مع الأسف ليس

من نوع الخيال المثمر الذى خدم الشعراء والكتاب بل هو من نوع الخيال المهلك الذى أضاع فى وديانه السحيقة كثيراً من عاثرى الحظ الذين حسبوا أنفسهم شعراء زمناً طويلا وهم ليسوا بشعراء . ثم هنالك شىء آخر اخالك لم تلتفت اليه هو طبيعتى التى تميل إلى عدم الأخذ بما يأخذ به الناس جميعاً من أوضاع ، هربا من الوقوع فى الابتذال وشغفاً جنونيا بالتميز والاغراب . ففى لبسى لا أرتدى كما يرتدى الآخرون ولا أدخن لأن التدخين عادة عامة ، وربما دخنت لو انقطع الناس عن التدخين . لا أهدى إلى حبيبتى الأزهار الجميلة ولا العطور اللطيفة بل أهدى اليها ببغاء فى قفص . ولا أكتب اليها مباشرة عن الحب بل اتبع طرقا لن يتبعها عقلاء الناس . وتسألنى بعد ذلك لماذا أحب «المودرنزم» ؟ أليس لأنه أقرب الفنون إلى الخروج على المتبع المألوف ؟ لقد قالها أحد

النقاد الحـاقدين على هذا الفن الحديث : « ان أهل هذا الفن يأتون كل سخيف مهجور بحجة حرية الابتـداع والتفنن فى الابتـكار » الواقع انى وجدت فى هؤلاء ، لا فقط مأواى ومعقلى ، بل وجدت كل طبيعتى وما تنطوى عليه من حمق وجنون . لقد وجدت على الأقل سنداً وأساساً لرغبتى المحرقة فى الخروج على ما أسميـه « المنطق العـام » . وأقصـد المنطق المبنى على فروض عامة مصطلح عليهـا غير متنازع فى صوابها . كالفرض بأن الغيرة مثـلا دليل الحب أو ان الخيانة رذيلة . فالنتائج المترتبـة على هذه الفروض العامة تـكون فى الغالب هى الأخرى نتائج عامة . ويصح عندئذ تسمية كل ذلك بالمنطق العـام . أريد أن يكون هنالك منطق خاص ، يحوى فروضاً خاصة لا تخضع للمألوف من الآراء والمشاعر ، كالفرض بأن الحب لا يحوى غيرة مطلقا ولا بغضاً مطلقا .

ومن مثـل هذه الفروض تتولد نتائج خاصـة . ومن خلاصـة كل ذلك يقوم ذلك الذى أسميه (المنطق الخاص) ... لذلك تجدنى افهم حركة « المودرنزم » على الوجه الآتى : هى اتجاه إلى عدم التقيد بالمنطق العام والنزوع إلى المنطق الخاص . كما كان « الرومانتزم » بالنسبة إلى (الكلاسيسيزم) فى بعض مظاهره نزوعاً فى التفـكير والعواطف من العام إلى الخاص . مع هذا الفارق فى نظرى بين الرومانتزم والمودرنزم : ان الأول لم يحاول هدم الفروض الأساسية المألوفة أى المنطق العام . فى حين ان الثـانى ينحو إلى هدم هذه الفروض العامة وإحلال فروض خاصة فى مكانها أى إنشاء منطق خاص . سواء كان هذا التفسير صحيحاً أو غير صحيح فهو كلامى الذى يعكس طبيعتى الآن ورغباتى الحاضرة . انه عقيدتى الخاصة فى هذه الأيام لا بالنسبة إلى المودرنزم بل بالنسبة إلى نفسى .

صدقت يا اندريه فى قولك انى أصلح أن أ كون رياضيا وان أفكارى وتصرفاتى تكاد تسير على طريقة هندسية أو حسـابية أو جبرية . هذا صحيح . ولا أدرى كيف اهتديت الى ذلك . انا مع الأسف كذلك . وهذا ماسوف يهدم كل عمل مسرحى أو فنى أحاول إنشاءه . ان إسقاطى الحياة والعواطف كما هى وكما يراها ويحسها دهماء الناس ، وركونى الى الطريقة الرياضـية فى تصريف أفكارى وتأملاتى لمصيبة كبرى . واليك دليل آخر فى قطعة (الحلم) التى أرسلتها اليك . انك ولا شـك لم تجد فيها أى صورة تنطبق على الحياة وعواطف الحياة ، ولكنك قد وجدتها متمشية مع العقل والمنطق الذى تقتضيه فروض خاصة أنشأتها أنا فى البداية . تلك هى الرياضة : فرض وعقل ومنطق . التصوير الحديث أخرج من حسابه العواطف البشرية وجعل

أساسه الهندسة والمنطق العقلى الواعى وغير الواعى والموسيقى الحديثة أيضاً ... ياللبلاء ! انى أحب الفن الحديث وأقلده أحيانا وأخشـــاه وأخشى منه على نفسى ... ؟

حاشية — أكثر من رسائلك يا اندريه فهى متعتى الوحيدة الآن . فأنا محبوس فى حجرتى أستعد لامتحان الدكتوراه فى أول مارس القادم ... ؟

باريس — شارع بلبور فى ...

عزيزى اندريه :

يجب أن تعلم انى لم أكن حراً طليقاً فى اختيار الموقف الذى وقفته منك الشهر الماضى . فهنالك عوامل جعلتنى أتلقى كلامك بكل تحفظ وأضع نصحى على أساس العقل والحزم لا على أساس الخيال . وما هو العقل والحزم عندى فى ذلك الوقت ؟ تلك نقطة الخلاف بيننا . وربما كان سبب الخطأ اعتقادى ان كل مابك لا يزيد عن مجرد « مرض الغربة » دهمك على أثر وحدتك الفجائية . تخيل إلىّ أن الدواء هو فى تشجيعك على الاستمرار فى تحمل هذه

الوحدة . وكان ان ذكرت لك كلمة « إبسن » : « الرجل القوى هو الرجل الوحيـد » . وتحاشيت أن أثير فيك الذكريات الجميلة والتحرق على السعادة التى خلفتهـا فى باريس . أجل يا اندريه . لقد كنت قاسياً عليك قسوة الطبيب الذى يمنع الماء عن مريضه الظمآن بحجة الطب والتطبيب . مهما يكن المنطق يبرر هذا الجرم فان ضميرى غير مقتنع . وقد لعنت نفسى لما سببته لك من ألم . انك تعرف أنى بطبعى لست ممن يقفون عادة مثـل هذه المواقف نحو العواطف . انى أحب الحب . وانك لتعرف أن للحب مقاما كبيراً عندى فى الحيـاة . فى كل حياة . وربما كان الحب هو الشىء الوحيد الجميل الذى نعيش به ومن أجله نحو البشر . آه لو كان القدر أعطـانى هذه المنحة لحظة واحدة ! وجعلنى أجد أحداً يحبنى حقيقة مرة واحـدة ! أنا الذى اعتقـد طويلا أن

عظماء الرجال هم عظماء العواطف وأقوياء الرجال هم أقوياء العواطف . إن الذى لايعرف ولا يستطيع أن يحب إنسانا لن يعرف ولن يستطيع أن يحب الانسانية . لقد كان آلهة اليونان يحبون ويتألمون وهم آلهة . وهم رمز القوة . إن الحب والقوة لايتعارضان . ولماذا لانقول انهما فى عين الطريق يسيران ؟ ليس عبثاً أن تقوم المسيحية على فكرة حب الله مريم وإيجاد عيسى ثمرة لهذا الحب . إن المعانى التى يمكن استخراجها من هذا الرمز لا حدّ لها ...

لست أنا إذن يااندريه الذى يعيب عليك الاسراف فى حب زوجك وولدك ! وبعد ... فقد مضت أيام لم أر خلالها جرمين وجانو لأنى كما تعلم سجين حجرتى أطالع وأدرس . ثم لسبب أشد وأمر : الافلاس . نعم غطانى بردائه الأسود فلم يبق معى غير ثمن شريحة اللحم . (على حد قولك) من أردإ نوع ... ؟

حاشية — بعد أن ختمت هذا الخطاب وصلنى الآن بالبريد السريع رسالة من جرمين داخلها ورقتان ماليتان بمبلغ عشرين فرنكا (على سبيل الاعانة) كما تقول . وهو كل ما استطاعت أن تنقذنى به . وانى اشكرها واسأل الله ان لا يوقعها فيما أنا فيه ...؟

باريس ــ شارع يلبور فى . . .

عزيزى اندريه :

وصلنى خطابك ومعه مبلغ الأربعمائة الفرنكات وإنى اشكرك . الآن تستطيع ان تطمئن على هدوئى مدة شهر ، على شرط ان لا تسمعنى انت ذكر النقود . حبذا لو نسيت استعمال هذه الكلمة الملعونة بعد الآن فى رسائلك إلىّ ! أملى كبير فى أن تحقق رجائى ولا تطلب إلىّ بعد اليوم سنتيما . تلك يا اندريه هى الطريقة الوحيدة لتصحيح مركزك المالى ومركزى أنا ايضاً . أنا كذلك لن اطلب عندئذ سنتيما من دائنى . سأعطيه ما اعطيتنى اليوم

وأقسط البـاقى ، كما تصنع معى . وبذلك أضمن لك وأضمن لنفسى تصفية نهائية لهذه الـكارثة . على أنك قد أدهشتنى كل الدهش إذ لا تزال تذكر على سبيل الجد تلك الحـكاية القديمة التى أخبرتك بها : رصيدى فى البنك لذلك المبلغ الصـغير الذى ربحته ثمناً لرواية تمثل لى فى القـاهرة . ألأنى واضـع همى فى أعمـاق نفسى لا أجاهر بالشـكوى ولا أتفجع ولا أتوجـع تظن أنى نائم على رصـيد فى بنك ! أغاب عنك أيها المحترم انى أحببت ، وان حبي كان ممـا يتغذى بالنقود كما تتغذى النار بالوقود ! انك تذكـر جيداً ان الرصـيد قد ذهب فى هدايا النويل والمطـاعم الغـالية من بوكاردى الى حان الأب لويس . والملاهى الفاخرة والمسـارح العـامرة ! أنا أيضاً على ديون مثلك وما تسدده لى يدخل فى جيوب غيرى . حالى مثل حالك .

على أنك أنت قد خربت وبقى الحب . أما أنا فقد خربت وضاع الحب ! ...

وبعد فانى الآن جاد فى الاستعداد للامتحان فى أول مارس . وهى آخر فرصة لى ، فاذا ضاعت فانى أقطع الأمل نهائيا فى نوال الدكتوراه . ذلك ان البرنامج بعد ذلك يتغير وبهذا يذهب هباء كل ماقرأت فيما مضى . ثم انى لن أستطيع التقدم مرة أخرى إلا بعد مرور عام على الأقل ، بالبرنامج الجديد . فأول مارس كما ترى هو التاريخ الفاصل فى أمر مستقبلى الدراسى للقانون . وفشلى فيه سوف يكون صدمة كافية أن تقصينى الى الأبد عن طريق الحقوق . فهذا الامتحان هو حدث هام فى حياتى . ولا أريد أن أتهاون فيه حتى لاتلقى التبعة عليّ وعلى إرادتى . فأنا أجهد نفسى فوق الطاقة لأضع التبعة على رأس القدر . فاذا أراد هو أن يصدمنى ليخرجنى من سجن

القانون إلى فضاء ... إلى أى فضاء ... فتلك إذن إرادته هو لا إرادتى .

أرجو أن تعيد إلىّ الرواية بالتالى . فأنا لست أدرى ماذا قام برأسى فجعلنى أرسل اليك شيئا مثل هذا لم يتم . وحبذا لو اعدتها قبل أن تقرأها . اما إذا كنت قد قرأتها وقضى الأمر فاكتب إلىّ برأيك فيما قرأت ... ؟

حاشية — فاتنى أن اخبرك انى ذهبت منذ يومين لمشاهدة «اندروماك» لراسين فى الكوميدى فرانسيز . وقد خطر لى ان اصطحب جرمين . ولكنى بحثت فى جيبى فلم اجد معى غير ثمن مقعد بالمسرح « فى أعلى عليين » ... وحتى لو كان معى أجر مقعد آخر بجانبى لخجلت ان ادعو اليه جرمين ... ان الارتفاع والعلو موضع فخر فى كل شىء إلا فى المسارح ! :

آه يا اندريه ... ان تمثيل التراجيديا عمل ليس بالهين . ذلك ان المطلوب من الممثلين ليس مجرد تفسير النصوص طبقاً للروح الفلسفية والاسطورية التى تنطوى عليها هذه الآثار ... ولكن كذلك طبقاً لأوضاع الفن « البلاستيك » كما عرفه الأغريق . ان كل وقفة فوق المسرح من وقفات ممثل التراجيديا يجب ان يكون لها جمالها المثالى فى فن النحت . كل ممثل أو ممثلة للتراجيديا يجب ان ينتقى من بين اصحاب الاجسام التى تصلح فى ذاتها نماذج فنية للمثالين ، إن الصلة لوثيقة جداً بين فن النحت وفن تمثيل التراجيديا ... كما هى وثيقة بينه وبين فن الموسيقى . إن اصوات ممثلى التراجيديا لا تنتقى عفواً ولا تلقى عفواً . فليس الالقاء الطبيعى هو المطلوب فى التراجيديا ، كما هو الحال فى الدراما أو الكوميديا . وإنما يجب ان يكون الصوت والحركة فى التراجيديا —

كما هو الحال فى « الاوپرا » — خاضعين قبل كل شىء للأوضاع المعروفة فى فنون النحت والموسيقى والعمارة والتصوير . لذلك كنت مخطئاً فى حكمى يوم شاهدت لأول مرة فى الكوميدى فرانسيز ممثلة التراجيديا « سيجون فيبير » والممثل التراجيدى « البير لامبير » يلقيان الشعر على نحو اعتبرته انا خارجا على الطبيعة . وهل الشعر بنظمه وقوافيه وأوزانه الموسيقية إلا من الفنون الخارجة على الطبيعة ؟ . . . وما دام هو كذلك فيجب أن يؤدى متسقاً لا مع الطبيعة ، ولكن مع غيره من الفنون التى تتصل بها التراجيديا . . . ؟

باريس — شارع بلبور فى ...

عزيزى اندريه :

لاشك أنى لست كريم الخلق بالفطرة والسليقة . أمس هبط علىّ الشاعر البارناسى فى حال يرثى لها ، فلم أمد له يد المعونة كما ينبغى . يجب قبل كل شىء أن تعرف من هو هذا الرجل عندى ؟ انك لم تره غير مرة واحدة معى فى قهوة « الدوم » . وقد غاظك منا اشتغالنا عنك بمناقشات فنية طويلة عن الفروق الدقيقة بين المدرسة الايطالية والمدرسة الفلمنكية فى التصوير . فتركتنا ساخراً وأنت تهمس فى أذنى : « أين هذا الشيخ المتهدم الذى جاوز الثمانين من تلك

الصبية الحسناء التي تنتظرني فى « الروتوند » ؟ !
ولكنك تذكر أن إغراءك فى تلك المرة لم يصادف عندى نجاحا . إن الجلوس إلى ذلك الشيخ المتهدم كان ينسيني مفاتن الدنيا . لأنه كان يريني مفاتن الفن . هو الذى فتح بصرى على جمال الفن « البلاستيك » من نحت وعمارة وتصوير . كما أزاح لى مسيو « هاب » الستار قبل ذلك عن جمال الآداب القديمة . فقرأ معى الالياذة وبعض مآسى سوفوكليس وأربوييد وإشيل وكوميديات ارستوفان ... ثم ترك حبلى على غاربى . وقد تمكن منى داء المعرفة . فتركته وانطلقت وحدى ألتهم كل شيء من قديم وحديث . وكما حدث مع والدتك يوم كنت أقطن عندها فى « كوربفوا » . وتذوقت لأول مرة غناءها للأوپرات . فكنت أنتزعها من المطبخ انتزاعا لتذهب إلى البيانو « بفوطتها » تغنى لى المقطوعات

الجميلة فى « كارمن » و « فاوست » و « اجراس كورنفيل » . إلى أن عرفت طريق دار الأوبرا والأوبرا كوميك ثم قاعات الكونسير « كولون » و « جافو » و « پادلو » . فلم أعد اليها بعد ذلك قط . على أن والدتك وكذلك مسيو « هاب » ليستا فى حاجة إلى حسن المعاملة . أما ذلك الشاعر المسكين فله شأن آخر . أنه لا يكاد يجد الآن مايسد به رمقه . أنه كان شاعراً معروفا يوم أخرج مجموعة شعره الكبرى . ولقد أرانى نسخة من الطبعة الأولى صدرت منذ نصف قرن ، وقصاصات من نقد ذلك العهد تنعته بأنه من أركان مذهب « البارناس » . ولكن الشعر لايستطيع أن يقيم أود إنسان إلى مابعد الثمانين . فهو اليوم بائس حقا ، يعيش فى حجرة قذرة « مانسارد » ويأكل مما تجود به معونة أصدقائه ، ولعل أكثرهم قد مات الآن : وهو قد

فرح بى يوم عرضت عليـه أن يقودنى إلى المتاحف وآثار الفن وأن يلازم أحدنا الآخر كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، على أن أتكفل أثناء ذلك بنفقات غدائه وعشائه وتبغه وشرابه ؛ وهو يستحق أكثر من هذا ولكن ماليتى كما تعلم محدودة . ومع ذلك فما كنت أتركه بعد كل لقاء دون أن أدس فى يده ورقة مالية صغيرة ، وأنا أقول فى نفسى « اجعل انك اشتريت بهذا المبلغ كتابا » وما أكثر الكتب التى أبتاعها فى كل يوم كما تعلم بالمال المخصص لكسوة الشتاء ، على أن هذا الرجل كان لى خيراً من ألف كتاب ، أنه كتاب حى متنقل ماترك قاعة فى متحف اللوفر ، أو حديقة فيها تماثيل ، أو كاتدرائية أثرية دون أن يذهب بى اليها ويقف بى عليها شارحا مفسراً .

إنى لم أزل أذكر لقاءنا الأول وقد أحضر معه الى القهوة « صرة » صغيرة ، سألته عنها دهشاً . . ففتحها

بحرص واعتزاز دون أن ينبس ... فاذا هى مجموعة أثرية صغيرة ، عن العصور الحجرية الأولى ، أو ما يسمونه « المجاليت » وأخذ يوضح لى المظاهر الأولى لفن العمارة فى « المنهير » و « الدولمن » ... ذلك انه اراد ان ابدأ فى معرفة الفن من البداية ... فأرانى تطور النزعة الفنية منذ الانسان الأول ... وقادنى الى متحف التاريخ الطبيعى ... ثم الى دار الكتب ... وهناك رأيت لأول مرة تمثال « افروديت » بغير رأس ولا ذراعين ولا ساقين . ولكن أى جمال ! ؟

« لاشىء اجمل من جسد امرأة » تلك هى الصيحة التى لفظناها أمام هذا التمثال . لقد قلت لصاحبى الشاعر يومئذ انى قد فهمت المعنى الحقيقى لكتاب « بيير لويس » عن افروديت ، انه ولا شك قد رأى من تمثالها هذا ما رأينا ! ... كيف استطاع ذلك النحات الاغريقى ان يستخرج من ثديين وردفين

(لأن التمثال ليس أكثر من ذلك) جمالا ارتفع إلى القدسية ؟ ! « بيير لويس » أراد ذلك أيضاً بلا جدال ، فأشاد بجسد المرأة إشادة لم تفهم أحيانا على الوجه الذى أراد ... وهكذا كنا نتحادث ونتناقش أمام كل تمثال أو صورة أو أثر فنى ... ويجرنا الحديث من فن إلى فن ، ومن مقارنة إلى مقارنة . فالآداب والفنون والعلوم وكل مظاهر النشاط الذهنى متصل بعضها ببعض إلى حد قد لا يصدق لأول وهلة . فالمعرفة سائل فى إناء عناصره كل هذه الأشياء ... وأخيراً جاءت الساعة المحتومة . لقد تفتحت عيناى وانتهى الأمر .. وعرفت كيف أبصر دون حاجة إلى دليل . وعرفت كيف اقرأ فى ذلك الباب . فهذا (هيبو ليت تين) و (جان مارى جويو) و (جرانت ألن) و (جون رسكن) و (سالمون ريناخ) الخ ... وعشرات الكتب الفنية المصورة عن أعمال المصورين

والنحاتين . وهذا هو (اللوفر) و (اللوكسمبورج) ومتحف « رودان » والمعارض السنوية الدورية . ثم بعد ذلك كله وهو الأهم ... هذا هو تفكيرى الشخصى قد تكون بعض الشىء ونظرتى الخاصة بدأت تطالبنى بأن أستقل فى التأمل والتقدير والاستنتاج . جاءت اللحظة التى شعرت فيها بوجوب السير بمفردى ... وكانت بوادرها ذلك اليوم الذى أدركت فيه ان محادثات ذلك الشاعر لم يعد فيها جديد يثير اهتمامى أو التفاتى . ولقد شعر المسكين بذلك فكف عن الحديث فى الفن . وندرت مقابلاتنا واقتصر الكلام أثناءها على التافه من أمور الدنيا . إلى أن انقطعت ، وانصرف كل إلى شأنه ، فأصبحت لا أراه إلا إذا اشتدت به ضائقة أرغمته على اقتراض بعض النقود منى . ولقد جاءنى أمس كما قلت لك فى

الصباح المبكر فاستيقظت ساخطا متبرما فأبصرته يرتعد من البرد ويقول لى : « إذا لم أجد دثاراً ثقيلا فى هذا الشتاء فانى لن أظل حيا حتى مطلع الربيع » فلم أرد عليه بكلمة ، ولكنى أخرجت له ورقة مالية صغيرة وضعتها فى كفه كأنه شحاذ ، فرفع الشيخ قبعته شكراً وانصرف صامتاً . وعدت إلى فراشى لأستأنف رقادى . فقد سهرت ليلتى أطالع كالمعتاد . ولكن النوم هرب منى . لقد تنبهت لما حدث ، وتمثل لى سوء فعلى . كيف أصنع معه ذلك ؟ وكيف أتركه يذهب هكذا بقليل من نقود لن تغنيه شيئا . وتذكرت هيئته الذليلة ساعة انصرافه صاغراً مذعنا لحكم القدر أو حكمى أنا على الأصح ، وكانت آخر لفظة قالها برغم ذلك هى Merci beaucoup خرجت من فمه خافتة مخلصة

لا أثر للمرارة فيهـــا ولا للعتاب ... هنا أدركت
انى لو كنت حقـا كـريم النفس لألقيت على
منـكبيه الهزيلين معطفى بغـير تفـكير ولا تدبير
ولا تردد ... ؟

باريس — شارع بلبور فى ...

عزيزى اندريه

لقد لفظ القــدر كلمته . انه لا يريد لى طريق القانون . لقد رسبت فى ثلاث درجات ، ولم ترد لجنة المحلفين جبر النقص بينما وافقت لجنة أخرى على جبر أربع درجات لأحد أعضاء البعثة . من هذا ترى ان القدر لم يرد أن يمد إلىّ يده كما مدها إلى غـيرى . لمـاذا ؟ إياك أن تفهم انى تهاونت فى الدرس . لقـد كانت اجابتى مرضـية جداً فى علم تاريخ المبـادىء والمذاهب الاقتصادية (آراء ارسطو حتى آراء كارل ماركس) وكذلك في علم الاقتصاد السياسى وكذلك

فى علم التشريع الصناعى ، ولم أهبط إلى حد الرسوب إلا فى علم واحد هو علم « المالية » (ولعل هذا يفسر لك ارتباك ماليتى) . انه علم اجراءات وأرقام لا تستقر فى ذاكرتى . آه للذاكرة يا اندريه ، ما دامت الذاكرة هى المعول عليها إلى حد كبير فى الامتحان فلا أمل لى . أما المطالعة فى ذاتها فما أيسرها وما ألذها عندى . انى أطالع فى اليوم مالا يقل عادة عن مائة صفحة في مختلف ألوان المعرفة (من أدب وفنون وفلسفة وتاريخ إلى علوم رياضية وروحانية) مائة صفحة فى اليوم أى ثلاثة آلاف صفحة فى الشهر . بينما المقرر كله لامتحان الدكتوراه لا يتجاوز ثلاثة آلاف صفحة فى العام كله . لو تعلم انى قرأت مقرر الدكتوراه للقانون العام وهو عن : (سلطة الكنيسة والدولة) و (نظام العبادات منذ القرن الرابع عشر) و (عصبة الأمم) و (المبادىء البارزة للقانون

الدولى) و (أهم اتجاهات قضـــــاء مجلس الدولة) و (الدساتير المـكتوبة) . قرأت ذلك كله دون أن أتقدم فيـه إلى أى امتحان . قرأته لمجرد القراءة . وما قراءة مقرر عندى إلى جانب قرا آتى الاخرى ! ألم أخبرك أنى تتبعت كثـيراً من دروس السوربون لغير غاية إلا تتبع آثار الثقافة التى تعنينى . لقدحضرت كثيراً من محاضرات الأستاذ برنشفيج عن « صلات العلم بالدين فى القرن السـابع » ومحاضرات دلا كروا عن « الأحوال النفسية للفن » ودروس روبين عن « المذاهب الأخلاقيـة والسياسية لأفلاطون وارسطو » . ودروس فوجير عن « مصـادر فن العمارة الاغريقية » و « آثار اكربول اثينا » . ومحـاضرات شنيدر عن « ميكل انجيلو وعصره » . ومحاضرات برونو عن « الثورة واللغـة » ومحاضرات لجويس عن « تاريخ الشعر الانجليزى » الخ . لم يمنعنى

الانقطاع عن الحى اللاتينى من متابعة هذه الدراسات فقد استحضرت كتبها وانغمست فى مطالعتها لنفسى ، وسرت على دربها وأنا فى حجرتى . ان التحصيل فى ذاته للثقافة والتكوين هو لذتى الكبرى الآن . انما الذى يخيفنى هو الامتحان . لقد تحقق لدىّ اليوم انى لا أصلح بطبعى للتقدم إلى أى امتحان . ذلك ان الامتحان يريد منى عكس ما أريد أنا من القراءة . انى اقرأ لأنسى . والامتحان يريد منى أن اقرأ لأتذكر . انى اقرأ لأهضم ما قرأت أى أحلل مواد قراءاتى إلى عناصر تنساب فى كيانى الواعى وغير الواعى . أما الامتحان فيريد منى أن أحتفظ له بهذه المواد صلبة مفروزة . انى اشعر وأنا اقرأ حتى مقرر الدكتوراه فى القوانين ان مواده قد تفككت واختلطت بمواد أخرى لقراءات أخرى لا علاقة لها بالقانون ، كما تختلط فى المعدة المواد الغذائية بعضها

ببعض . وإذا الناتج من هذه المواد المختلطة هو عصير ثقـافى يسرى فى دمى المعنـوى فأحس كأن وزنى الفـكرى قد ازداد ، وكأن قدرتى على احتمال التأمل المثمر قد نمت . أما المواد الغذائيـــة فى ذاتها فقد هضمت أى نسيت . الامتحان يريد منى أن أوقف عملية الهضم حتى يتحقق الممتحن من وجود المواد صلبة مفروزة داخل المعدة الذهنية .

لا أريد بذلك أن أعيب نظام الامتحان فى ذاته ، إنما أنا أعيب نظام بنيتى الفكرية . إنى سريع الهضم إلى حد قد يعد مرضاً فى نظر الممتحن . ومع ذلك لماذا أتقدم لممتحن ، مادمت قد تناولت الغذاء وأحس حرارة الدم القوى تفور فى رأسى ، فلماذا أدع الناس يفحصون مافى معدتى ؟ !

اترانى ادافع عن نفسى وألتمس الأعذار يا اندريه ! لست ادرى . ها انت ذا ترانى غير يائس

ولا ساخط . وإنى أتقبل الصدمة باسماً لأنها لا تدل على شىء ، إلا على قرب وقوع الكارثة العظمى : وتركى أوروبا والعودة إلى بلادى …

لقد لفظ القدر كلمته . ولا جدوى من الاصرار على معارضة القدر لكن..أتراها ياأندريه إرادة القدر حقا أم إرادتى أنا ؟ من الانصاف أن أخبرك بشىء عجيب : لقد قرأت منذ أسبوعين كتابا جديداً لأحد معاونى فرويد عن « القدر » . ذكر فيه اننا نحن الذين نصنع أقدارنا بأنفسنا . وإن مانسميه القدر ليس إلا إرادتنا غير الواعية . ورب حادث صغير أو حلم من الاحلام أو نبوءة من النبوءات نصدقها فتستقر فى أعماقنا وتعمل سراً على دفعنا فى سبيل تحقيقها . فلقد حدث لى مثل هذا الحادث . كان ذلك آخر ليلة أستعد فيها للامتحان . لقد سهرت إلى الرابعة صباحا تحت مصباح المكتب الصغير حتى أتممت مراجعتى الاخيرة

فطويت الأوراق والكتب ونهضت للنوم كى استيقظ نشيطا للامتحان . وكنت منشرحا متفائلا مفعما بالأمل لامتلاك ناصية المقرر . وإذا فجأة تصطدم يدى بالمصباح فيقع مكسوراً على أرض الحجرة تاركا كل شىء فى الظلام . عند ذلك دب التشاؤم فى نفسى وحدثتنى نفسى بسوء الختام . فى هذه اللحظة فقط كان فشلى قد تقرر ، كما تقرر مصير « مكبث » ملكا مجرما فى اللحظة التى آمن فيها بنبوءة الساحرات .

سواء كانت تلك إرادة القدر أو إرادتى فقد فشلت يا اندريه ، فارث لى ... م ؟

حاشية — لماذا لم تعد إلىّ الرواية بالتالى . إنى دهش لاغفالك خبرها ! . . أتراها لم تصل إليك ؟ . . .

باريس فى ٢٤ مايو ...

اندريه ..

بعد بضع ساعات أكون قد فارقت باريس المحبوبة ...

أسافر هذا المساء بقطار الساعة التاسعة . وغداً ٢٥ مايو تكون الباخرة « راولبندى » قد أقلعت حاملة جثمانى . وإن سئلتَ عن الروح قل روحه فى قاعة كونسير « بلبيل » ! ...

اندريه ، لست أملك الآن من أمرى شيئاً ، إلا الابتسام فى وجه القدر الظافر . ولعل هدوئى راجع إلى توقعى هذه الكارثة التى تعرف انى طالما

ترقبت ساعتها بذعر وفزع . لقد وقع الأمر المحتوم . فما تريد أو أريد ؟ أملى الباقى معلق عليك . رسائلك يا اندريه على الأقل ! رسائلك تحمل إلىّ فى صحرائى نسيم أوروبا العظيمة !

أودعك يا اندريه وداعا حارا ، وأودع جرمين وجانو وقد رأيتهما أمس للمرة الأخيرة ، أودعكم وأودع فيكم باريس الفن والفكر ... »

حاشية — كنت أريد أن أحدثك عن موسيقى اليوم (ميلهو - روسل - هونجر - سترافنسكى) بمناسبة حفلات هامة قامت بها فرق أجنبية فى باريس فى الشهرين الأخيرين : فرق ألمانية بقيادة « مانجلبرج » وأخرى نمساوية بقيادة « برونو فالتر » . ان طرق هذه الموضوعات الآن لمما يزيدنى ألما . على انى أحب أن

أقول لك ان سخطى على ستراڤنسكى يوم نشر نقده المقذع لفاجنر وبيتهوفن قد زال بعضـه عند سماعى قطعته « تقديس الربيـع » مرة أخرى . انه على كل حال تعبير قوى لاتجـاه جديد فى الموسيقى وأغراضها كما يفهمها هذا الروسى الثائر .

نسيت أن أخبرك فى رسالتى السـابقة انى شاهدت رواية « هاملت » فى الشهر المـاضى يمثلها خير ممثل فى ايطاليا حذق هذا الدور وهو (روجيرو روجيرى) وكنت قد شاهدتها قبل ذلك من تمثيل (موييسى) وهو خـير من قام بهذا الدور عينه فى ألمـانيا ... إن مجال المقارنة بين الفنيين لمما يحتاج إلى رسـالة طويلة . ويكفينى أن أقول لك انه لا يوجـد مكان فى العـالم ترى فيـه الفنون كلها مجتمعة سوى باريس . باريس هى (ڤترينـــة) العالم . نعم ... هى

الواجهة البلورية التي تعرض خلفها عبقرية الدنيا ...
أكرر وداعي لك ولباريس وأحذرك يا اندريه من
أن تحرمني وأنا بمصر هـذا الاتصـال بألوان
الفن ...؟

الاسكندرية فى ١٣ يونيو ...

عزيزى اندريه :

أحفظ لك فى نفسى جميلا يضاف إلى سوابقه : رسـالتك الطويلة التى بادرت باطلاقها فى أثرى ، فأدركتنى ولما أتم الاسبوع فى بلادى ، إذا أردت أن تعرف مقدار اغتباطى بهذه الرسالة فاذكر أنك ضمختها بعطر فرنسا المأسوف عليها

أود لو أكتب اليك بأخبـارى ومشاعرى ، ولـكنى أراها لا تساوى شيئا كلها . أهى شىء غير إطراق طويل وابتسـامة حزينة ، كلهـا رأفة ورثاء لـكل مايقع أمامى هاهنا ، ويأس قاتل وتحرق دائم ،

وأيام تجرى كالدموع البـاردة ، وحيـاة أتمنى ردها لخالقها إن لم يعطنى حق استعمالها كما أريد ! هل ترانى مستطيعاً أن أكون شيئاً غير ذلك الآن ؟ !

أختتم خطـابى سريعاً خشـية أن يفوت موعد البريد المسافر إلى أوروبا هذا الاسبوع . وإنى أترقب رسالة منك ، فأنت الذى يقدر على إمتاعى بالطريف القيم ، أما أنا فما عندى شىء مفيد أقوله لك ...م؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه :

ها أنذا أسرع فى الرد على رسالتك راجياً أن تصلك خلال شهر الراحة كما تقول . وكل أملى أن يجيئنى منك رسالة عاجلة شافية تربو صفحاتها على العشر . فان أول ما يعنينى معرفته حين استلام رسائلك هو وزنها وحجمها غير حافل بما تحويه من كلام ، فأنا فى حاجة كما ترى إلى مجرد ثرثرتك . أما أنت فما أظن بك حاجة إلى أخبارى ، لأنها راكدة كالماء الراكد ، ولو بدا تغير قليل فى مجراها لبادرت باخطارك . كل ماعندى هو انى أعيش فى جو فكرى

— إن كان فى مصر مايجوز أن يسمى بالجو الفكرى — لا يستطيع أن يعيش فيه مثلى . وأصدقاء الماضى أصبحوا لا يصلحون اليوم لى ، فحديثهم ونكاتهم وطريقة قتلهم للوقت لمما يزهدنى فى الجلوس اليهم . وإن شئت وصفاً دقيقاً لحالى فهو يتلخص فى كلمة واحدة : الوحدة . الوحدة فى أكمل وأقسى معانيها . أمضى اليوم فى القراءة فاذا جاء الغروب خرجت إلى (كازينو سان استفانو) لأسمع القليل من الموسيقى التى يعزفونها هناك . وحتى فى هذا المكان الصاخب باللاهين أحرص على وحدتى فانزوى خلف عامود قرب (الأوركستر) متحاشياً نظرات من أعرف حتى لا أكلف نفسى عبء التحية . وهل تتصور أن يكون حالى غير ذلك ؟

لا أكتمك يا اندريه ، ان صرخة خرجت من أعماق قلبى عندما قرأت فى رسالتك خبر حريق

قاعة كونسير (بلييل) ! إن ألمى لهذا الخبر سيتضاعف كلما ذكرت ان هذا الهيكل العظيم هو عندى رمز من رموز الفن فى باريس . اكتب إلىّ كتابا مطوّلا إذا كنت تعتقد ان أسمى واجباتك نحوى هو التفضل على ساكن الصحراء ببعض نفحات أوروبا العاطرة . ؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه :

تعبت من كل شىء ، ومن كل إنسان ، ويئست من أن بلداً كمصر يصبح فى يوم قريب ذا حياة فكرية . لاحياة فى مصر لمن يعيش للفكر . . . لايشغل عقلى الساعة غيرشىء واحد ، ولا يلذلى إلا أمر واحد : تحطيم كل شىء . تحطيم كل شىء هام . وابدأ بمستقبلى ، الذى يلوح لى انه بدأ يتفتح عن وظيفة فى القضاء . . . حبذا لو استطعت تحطيمه لأهيم على وجهى فى بلاد الأرض ، لا تحدنى غاية ولا يوقفنى غرض .

وصلتنى اليوم بطاقة البريد المصورة من (ليل)، فغبطتك ، انك الآن فى شمال أوروبا . يا للحظ الجميـــل !

أشعر انى لا أستطيع أن اكتب اليك اكثر من ذلك . وحرصى على ميعاد قيام البريد يدفعنى إلى ختم هذه الرسالة عاجلا . وبذلك تصلك منى كلمة على أى حال . أريد أن اكتب إلى جرمين ، فأنا شديد الشوق اليها وإلى الصغير الجميل (جانو) ...؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه :

الحق انى راض عنك كل الرضا ، شاكرلك كل هذه العناية ، ولا أكتمك انى ما كنت أصدق وأنا مغادر باريس ان اتصالك بى سوف يكون بهذا المقدار . لقد كنت أحسبك ستنصرف عنى إلى حالك فلا تكتب إلىّ إلا بقدر ما يقطع شكى فى وجودك . أما الآن فقد ثبت لدىّ أمام رسائلك المتتالية انك لاتكتب إلىّ أداء لواجب . أتراك تحس ان أخبارك وأحوالك لها شأن عندى ؟ هى الحقيقة يا اندريه . ما من انسان يتتبع الآن أحوالك مثلى .

حدثنى عن نفسك كثيراً وعما حولك . أريد أن أحدثك عن آلامى ولكنى لا أنسى سخريتك ولذعك وهزءك بكل جد . هذا القلم فى يدك أتبين دماء (فولتير) تجرى فيه أحيانا ، فينبئنى قلبى بأنك لن تكتب إلىّ ردّا يجعلنى أطمئن اليك . فلأوثر الصمت ولأطلب اليك أنت الكلام . حدّثنى أنت عما عندك فى الشاطىء الآخر ، آه الشاطىء الآخر .. المائج بأضواء الحياة الفكرية ...؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه

مضى شهران وأنا انتظر خطابا منك لا يأتى ، وبدأت اعتقد انه لن يأتى ابدا . ومع ذلك ثق انى لم أصب عليك اللعنات أو انى فعلت ، ولكننى أقسمت انى على استعداد لشراء خطاب منك بالنقود . نعم انه لتمر بى لحظات أخرج من جيبى ورقة مالية أعلم انك فى أشد الحاجة اليها ، وأضعها أمامى ثمناً لرسالة منك ذات أربع صفحات ...

أما بعد ، فان مسألة (أكل العيش) ما زالت عقدة العقد وأمرها اصعب مما تتصور . ماذا تريدنى

أن أكون وكيل نيابة ؟ تاجراً ؟ مزارعا ؟ ثق أنى فى أى مهنة خلقها الله لن أكون سوى شىء واحد : أنا بطبيعتى ونقصى ! ومعنى ذلك أنى سوف أكون وكيل نيابة أو تاجراً أو مزارعا على طريقتى ، وهنا المصيبة والفضيحة ! إنك تعلم من غير شك أن لى منطقاً خاصاً يشط بى أحيانا عما اعتاده الناس . فاذا أنا فى واد والناس فى واد ، ينظرون إلىّ ويقولون : إما انه أبله وإما أنه فطن . لا أذكر فى حياتى ان الناس حكمت على غير هذين الحكمين المتناقضين : ففريق ، ومنه والدى يقول إنى أبله ، وفريق ومنه والدتى يقول انى فطن . ولم أسمع طول عمرى حكما وسطا بين هذا وذاك . على أن هذا كله لا يهمنى ولا ينبغى أن يهمك . مستقبلى حتى الآن شىء غامض . بل لعله لم يكتب بعد فى (اللوح المحفوظ) ! اذكر قولك لى مرة فى حديقة اللوكسمبورج : ان الله لم

يخلقنى ، انما هو الشيطان أراد أن يخلق طرازاً جديداً من الآدميين أو « موديل » من الانسان ، يضارب به الطراز الشائع المعروف . فجاء خلقه عجيب البناء غريب التركيب ، به أثر من عبقرية الشيطان ، ولكن به نقصاً ينم عن تخبط فى شؤون الخلق والابداع . ومع ذلك ، حتى على فرض أن الله هو الذى خلقنى لا الشيطان . فانه كان لسوء حظى يضجر ويتبرم كلما جاءه جبريل بلوحى المحفوظ ليعين فيه خطوات حياتى ، فقد كان يصرخ فى وجه الملاك الأمين قائلا : « اذهب عنى الآن ! » فيقول جبريل خاشعاً : « لكن . . . يا إله السموات والأرض ، المدعو توفيق الحكيم ولد وشب ونما وكاد يدنو من الثلاثين ، وهو لم يزل يدب على الأرض ويعيش فيها بالمصادفة ... وكلما جئت إليك بلوحه لأجل التعيين .. » فيسمع كأن الصوت العلوى يصيح به : « قلت لك

اذهب عنى الآن ولا تشغلنى بهذا المخلوق ! »

هكذا أعيش بغير مصير . حياتى فيما يخيل إلىّ هى فى يد المصادفة . والمصادفة غير قديرة على صنع حياة محبوكة الأطراف . آه . . . إن حياتى مفككة ، كالقصة المفككة ، أو الهيكل المزعزع الأركان .

انا الذى لايحب فى الفن غير قوة البناء ، وما يتبعه من قوة التركيز . وهذا هو سر عنايتى بالحوار التمثيلى فى الأدب . نعم ذلك ما أسميه عاطفة الـ architecture . هذا الاحساس الهندسى الذى من نتائجه : الحساب ووضع الكلام بمقدار والاعتماد على الخطوط الكبرى التى تحدث التأثير . انى مهندس architecte أدبى . هذا كل شىء . من ذلك الطراز الذى يشيد معبداً عارياً : أعمدة ضخمة متناسقة ولا شىء غير ذلك . ما أشــد حاجتى إلى حياة قائمة على أعمدة راسخة كالمعبد الضخم الجميل ! انى معبد يتصاعد من جوفه

لا بخور الايمان ؛ بل بخار الشك والقلق . انى أتألم ألماً لا يراه أحد ، إذ لا يظهر على وجهى شىء غير هدوء الرضا . هنالك دودة دائمة الوخز ، دائبة النخر فى قلب هادىء المظهر رائع المنظر كالكمثرى الذهبية . هنالك قلوب يسكنها الألم كأنه عبادة . حياتى كلها ليست سوى قارب نمل . لهذا يخيل إلىّ أنى صديق « رامبو » الانسان قبل الشاعر ، ولهذا أيضا كنت صديق « ايفان » الروسى الثائر ! أما أنت يا اندريه ؟ ان لك قلباً من غير شك ولكن ... ينقصك الألم . إذا انصهر قلبك يوماً انصهاراً كافياً وانتشر حوله الدخان ؛ فان هنالك بين ذلك الدخان تستطيع أن ترى الشبح الحقيقى لصديقك الشرقى !

انى الآن أنتظر الشتاء . ولعله يأتى بجديد . ولعل الله فى هذه المرة يلتفت إلى وجودى غير ضجر ولا متبرم فيعين طريقا لحياتى . ان الانتاج الفكرى

يا اندريه ليرتبط إلى حد ما بطريقة عيش الكاتب ، ويتلوّن أحيانا بلون حياته اليومية . لذلك ترانى أنتظر. على أنى فى هذه الفترة أتعزى عن نفسى بك وبنشاطك وأتوجه ببصرى إليك فى أمل ، وأتبعك فى مطالعاتك الليلية فى غبطة ورجاء . . . م ؟

حاشية — بعد أن ختمت هذا الخطاب تأملت قليلا فى أمر ذلك « اللوح المحفوظ » الذى تسطر فيه مصائرنا . مما لاشك فيه ان لكل نفس خلقت قصة يجب أن تعيشها على هذه الأرض . ومما لاشك فيه أيضاً ان كل قصة يجب أن تكون جديدة بعض الجدة ، وان تختلف عن غيرها بعض الاختلاف . تصور إذن كم من القصص قد ألف ويجب أن يؤلف لملايين ملايين الملايين من البشر . يخيل إلىّ ان هنالك فى السماء ملا كا فنانا منقطعاً لتأليف قصص المواليد

قبل خروجهم إلى الحياة . هذا الملاك الروائى المخصص لهذا العمل العسير يجب أن يكون واسع الخيـال إلى حد مخيف . والويل له إذا نضب خياله مرة . أخشى مع ذلك أن يكون خياله قد نضب وهو يمسك بالقلم ليسطر قصة حياتى ! ...؟

الاسكندرية في . . .

عزيزي اندريه :

انى آخذ عليك تقصيرك فى الكتابة إلىّ . وأوجه نظرك مرة أخرى إلى أن رسالة تكتبها إلى لاتشغلك كثيراً ما دمت تجد وقتاً يتسع لمغازلة الحسان . ولو ان بينى وبين نفسى أعلم ان هذه المغازلات قديمة التاريخ . ولا أحسبك قدنسيت قهوة الدوم والأمريكية ذات العيون التى تشبه فى زرقتها ماء بحيرات الجنة ! على انى أغتفر لك عن طيب خاطر كل إهمال إذا كنت مشغول الوقت حقيقة — بعد عمل المصنع المرهق — بالقراءة والمعرفة بما فيها الموسيقى وألوان الفنون جميعاً . ذلك الداء الذى تقول انى رميتك

به . لم يخب ظنى . انك قد سمعت فى هذين الشهرين من الموسيقى خير ما يمكن سماعه . فانى أعلم ، وقد مكثت فى باريس شهرى مايو ويونيو من بعض الأعوام ، ان ذروة الموسم الموسيقى هى فى هذين الشهرين . فان خير الفرق تتلاقى فى باريس في ذلك الوقت قبل تفرقها فى المصايف . لقد سمعت أنا أيضاً سانفونية « ماهلر » التى تحدثنى عنها و « نشيد الأرض » وهو إحدى روائع صحائفها . كما سمعت قطعة « الأفراح » العجيبة لسترافنسكى ، وكذلك قصيدته السانفونية « تقديس الربيع » وفيها هى أيضاً « نشيد للأرض » ولكنها الأرض الوثنية لا أرض « ماهلر » التى تتصاعد منها الروح الدينية العميقة . غير انك أحسن حظا منى بسماعك Lotte Schoene المغنية العظيمة . وفرق « الكورس » الشهيرة التى وفدت إلى باريس هذا العام . فأنا

لا أمل لى هنا فى سماع هذا الضرب من الموسيقى ، أعنى الصوت الآدمى المنفرد أو المجتمع . فأنا أستطيع على كل حال أن أجد فى الموسم الموسيقى لكازينو سان ستفانو تحت قيادة إيطالى متواضع يدعى « بونومى » كل برامج الموسيقى الآلية تقريباً ، حتى « اندانت » لماهلر سمعته ببرنامج الأمس . لكن من المحال أن آمل فى سماع messe أو requiem أو على الأقل السانفونية التاسعة لبيتهوفن . فمشاهير المغنين والعازفين لا يأتون هنا بالسهولة التى يذهبون بها إلى باريس . لذلك أرسلت إلى ألمانيا فى طلب اسطوانات لهذا النوع الذى لن أطمع فى سماعه هنا . وقد كلفنى ذلك نقوداً وأى نقود ! وبعد ، فأشكر لك حديثك المسهب عن الموسيقى . فأنت ولا شك تعلم ان الحديث عنها هو خير ماتطرب له أذناى ...؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه :

نعم انك ارتفعت حتى قمة الجبل . وقمت بتلك الرحلة الصـاعدة الجريئة . وكان من حسن حظى أن أرافقك . وكان من سوء حظى أن ألقى نظرى قبلك إلى مهبط السفح وأن ألفت نظرك الطامح الجنونى إلى هول مابعـدنا عن سطح الأرض . وها أنت ذا تعترف أنك بعد تلاوة رسائلى اضطررت إلى النظر فيما أقول فوجدت نفسك محلقا حقيقة على ارتفـاع مخيف . وأحسست لحظة الدوار . إلى هنا أوافقك . وأوافقك ايضاً على قولك إن أخشى ماتخشـاه على

رأسك من هذا الدوار هو عندما تهبط إلى مستوى زملائك فى المصنع . نعم ، انى أتوقع لك دواراً قاسياً ساعة النزول يتناسب مع ذلك الارتفاع . أما قولك آسفا انك بدأت تشعر بالوحدة الروحية تنسج أبرادها حولك ، فهو مالا أوافقك عليه ، أو لست متصلا بك دائما ؟ بماذا تفسر كتابتى المستمرة إليك ؟ تقول انه كان ينبغى — فى لوح قدرك — أن يأتى فتى من الشرق ليسبغ بخياله رداء الاحلام على عالم الواقع الذى كنت تعيش فيه . . ! أنا أيضاً كان ينبغى لى أن أرى جمال الواقع الناصع فى جوار عقلك الأوروبى المستقيم . ان هزة التصادم بين الشرق والغرب ، هى وحدها التى تفتح الأعين المغلقة فى الشرق والغرب إن فى تلاقينا لمعنى أوسع من كل معنى شخصى أو فردى ؛ ان فيه قوة الرمز ، ما من مرة احتك فيها الشرق بالغرب إلا وخرج من احتكاكها ضوء أنار

العالم ، وما من مرة تلاقى فيها وجه الشرق بوجه الغرب ونظر أحدهما فى عين الآخر إلا وأبصر جمال نفسه كأنه ينظر فى مرآة . أليس من العجب يا اندريه انك لم تعجب بكل ماعندكم من آثار الفن والموسيقى إلا بعد أن توطدت بيننا الصلة ؟ لن أنسى سخريتك بى وبخيالى وميولى فى أول عهود تلاقينا . لقد جعلت تهدم كل الأسس التى بنيت عليها حياتى . لقد جعلت تجرد صديقك الشرقى من كل صفة طيبة حتى صفة الفنان التى كان المسكين يعتز بها وقتذاك على نحو مضحك ، لابساً لها لبوسها من معطف أسود وقبعة عريضة سوداء ! لم تترك له أملا واحداً يعيش به . وبعد أن هدمته بلا رحمة قلت له ذات مرة : « والآن اذهب وألق بنفسك فى نهر السين إذ لا قيمة لمثلك ولا فائدة ترجى منه فى الحياة ! » ألا تذكر ؟ ومع ذلك شىء عجيب : لم يؤثر فى نفسى كثيراً هذا

الكلام ، وابتسمت له ورددت عليه رداً لطيفا أقرك به بعض الشيء . ألا تذكر ؟ ذلك أنى فى ذلك الوقت كنت أدرك انك لم تفهم بعد روح الشرق . ثم شيء آخر : هو انى فى ذلك الوقت كنت أقابل المأسوف عليه « إيفان » ذلك الروسى الذى كان يدعم إيمانى بنفسى وبالشرق كلما نالت منى بعض كلماتك .

ولكنى عدت بعد ذلك إلى الشرق ، عدت الى مصر يا اندريه فأصابنى بادىء الأمر ذهول . ذهول عنك وعن كل شيء ، كمن وقع من السحاب حقيقة . ثم أخذت أتصفح الوجوه والأشياء حولى . يالها من حقيقة مؤلمة ! رأيت نفسى فى شبه عالم نائم . لقد شعرت بما قد يشعر به من يهبط سطح القمر الأجرد المعتم . أنت أيضا نقلت إلىّ داءك يا اندريه فجعلتنى أبصر الواقع المؤلم بعين الواقع ...

لقد عشت بضعة شهور بغير نفس ولا إدراك ،

أحاول فهم السخفاء والجهلاء ، وأتمنى لو أستطيع أن أسرّ بعشرتهم ، وأن أصغى إلى أحاديثهم . لقد قطعت عهداً على نفسى عند ذاك أن لا أتحدث فى غير التافه من الأمور . الى أن وصلنى منك خطاب ذات يوم تؤنبنى فيه على هذا الخمول وهذا الجمود فكان أثره فى نفسى عميقا . لقد عاد إلى الذكاء والادراك . واذا عقلى الذى كاد يخبو بأفيون الشرق يضىء من جديد . وصحوت لحظة أفكر وأتأمل . وانتهى بى الأمر الى ان النور يأتينى من الشـــاطىء الآخر وان الأمل معلق على شخص مثلك يهز لى المصباح من الجهة الأخرى ... ؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه :

انى فى حاجة الى حديثك . تكلم فى أى شىء أو فى لاشىء . اسمعنى صوتك واشبعنى ثرثرة واملأ لى صفحات . . . يكفى أن تلقى على الورق خطوطا فتكون لها قيمة ... قيمة نقدية ، على الأقل عندى . ولو انى أعلم انك اليوم لست محتاجا الى نقودى ، فقد صلح حالك وصرت ممن يسيرون فى الحياة بنظام واطمئنان . نعم ان لمجرد الثرثرة قيمة نقدية أحيانا ، فانى أذكر يوم قرأت de profondis لأوسكار وايلد أن صحت : هذا كاتب له قلم يبول ذهبا ! أجل حسب

مثله أن يقول للقلم اكتب ، دون قياد من العقل والتفكير ، كما يرخى الفارس للجواد العنان . ان من الكتاب يا اندريه من تجد فيه هذه المزية العجيبة أو الموهبة الفريدة : انه معفى من انتقاء موضوع أو تخير قضية ، لأن عنده القدرة أن يجعل من مجرد كلامه المرسل إرسالا أشياء عالية القيمة . ذلك ان روحه وحدها هى كل الفن والأدب ، وان سر قوته فى تلك السجية الغنية والفطرة الخصبة . مثل هؤلاء لا ينبغى أن نقول لهم اكتبوا فيما هو منتج أو مفيد إنما ينبغى أن ننتظر فقط كل ما يخرج من مداد أقلامهم ، كما ننتظر العسل من النحل دون أن نخبره ان فى عمله شفاء للناس . مازلت تغمز أحيانا غمزات خفيفة لما أحمله لك من تقدير ، فتقول لى فى كل لحظة : « ما بالك تحشرنى فى الأدب وتفسد حياة رجل المصنع ! » كلا يا اندريه . ان الأدب لا ينافى حياة

المصنع . لأن الأدب هو الحياة . أو التعبير عن الحياة . انه الحياة كلها التى تحوى فى جوفها المصنع وغير المصنع . ولقد كان « إيفان » رحمه الله عاملا وفيلسوفا . أنت أيضاً صاحب ذوق وفهم . إياك أن تشك فى ذلك . مرة أخرى أقول لك : « استمع إلى قلبك . فالقلب هو أدق آلة فى جسدنا تسجل الصدق ! » .

وبعد . هل قرأت كتاب « جوزيف ديلتى » عن « نابليون » ما رأيك فيه ؟

لقد جاء فى البرقيات العامة خبر وقع على رأسى كالصاعقة : هو موت « بول سوديه » كبير نقاد عصرنا الحاضر فى فرنسا ، ياللأسف ! لقد كنا ننتظر مقالاته فى « الطان » كما ينتظر الحكم النهائى الفاصل فيما يختلف فيه النقد والنقاد !

أختم هذه الرسالة سريعاً لأن موعد البريد قد

أزف . وسأحدثك فى رسالتى التالية عن « كونسرتو » سمعته فى « الكازينو » ، هو مضحك للغاية ، إذ كان فيه عازف « فرتيوز » . سأجتهد فى أن أصف لك ما وقع ... ؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه :

وأخيراً أعلنوا فى البرامج وعلى الحيطان عن عازف « فرتيوز » يوقع أحد كونسيرتات « پاجانينى » فذهبت كالمعتاد . بل بنفس أكثر انتعاشاً وأشد فرحا . فلقدظفرنا آخر الأمر بكونسرتو وبفرتيوز ووقف المايسترو « بونومى » ونفش شعره بيده قبل أن يومىء إلى فرقته بعصاه . ثم التفت إلى يمين ثم إلى يسار منتظراً قدوم العازف العظيم . وذكرتنى هذه الحركة بمثيلاتها حين كان رئيس الأوركستر ينتظر دخول عازف شهير مثل تيبو أو هوبرمان

أوعازفة مجيدة مثل إريكاموريني . لقد دخل على نفسى الوهم والابتهاج بهذا التباطؤ المقصود وحسبت ان العازف الداخل قد ابطأت به سيارة « الرولز » لحدوث خلل فى الطريق . ولكن التفاتة منى إلى باب « النواليت » هدمت كل هذا الخيال . فقد أبصرت رجلا يتحشر فى ردنجوت — من المؤكد أنها ليست له — وعلى صدره رباط رقبة « فاقع » اللون لا يتفق مع سواد الرداء وعلى عينيه منظار غليظ لا يضعه غير سماسرة القضايا ووكلاء المحامين . وهو واقف يمشط شعره على عجل بمشط (من الخشب الخشر نفش) فلما رضى عن « قيافته » التى تكبد فيها ما تكبد ظهر مسرعا إلى المنصة وانحنى للجمهور كما ينحني مشاهير العازفين . ثم التفت إلى « بونومى » ونظر اليه من خلف منظاره السميك نظرة من يقول له : « الأمر سائر على ما يرام ؟ » فرد عليه الرئيس

بابتسامة . لكن فى شىء من التعالى . وحول نظره بالعصا المرفوعة الى الجوقة . فارتبت فى هذه النظرات واستدرت نحو المنصة فاذا بى أرى مكان « السوليست » خالياً . فأدركت الحقيقة . هذا العازف الذى أعلنوا عنه ليس سوى العازف الأول للفرقة هياوه وموهوه وأدخلوه علينا كأنه عازف « فرتيوز » . على انى مع كل هذا أقول لا بأس . ان « بونومى » رئيس أوركستر ضرورة . ولكنه على كل حال رئيس أوركستر . حقيقة انه يؤدى عمله كما يستطيع وتستطيع له مواهبه الخالية من الشعر والرقة والدقة . فهو لو أدى قطعة مثل قطعة « السحب » لكلود ديبوسى لأسقط على رؤوسنا أحجاراً من السماء . انه لا يدرك معنى لذلك الذى تسمونه معشر الفرنسيين nuance وكثير من بيتهوفن العميق مغلق عليه . ولعل المارش وال ellegro forte هو كل ما يمكن لمثله أن يؤديه .

وحتى هذه مادامت فيها عواطف — على الأقل عند بيتهوفن — فهو يسقط منها العاطفة على الرغم منه فلا نسمع منها غير الدوى المادى ولا نلمس إلا الهيكل الخارجى . أين هذا ممن أسمعونا « الغبار الموسيقى » la poussière musicale . على حد تعبير « هونجر » . وأين هذا ممن فسروا موزار وفاجنر تفسيرات تعتبر فى ذاتها خلقاً جديداً . لقد عرفت طريقة « برونو فالتر » مجدد موزارت وكان بودى لو أعرف طريقة « فان هوسلن » مجدد فاجنر ، وهو من يقولون عنه انه حول ال Grondements souterrains ، التى تملأ أعمال فاجنر الى موسيقى صافية نقية كأنها موسيقى موزار . وسواء كان فاجنر حقاً بهذا الصفاء النفسى الذى كان عليه الطفل الآلهى ، وهو ما أشك فيه . وسواء كان يريد فاجنر ذلك ويوافق عليه لو كان حياً أو لا يريد . فان المحاولة فى ذاتها تستحق المشاهدة .

لنقول بعــدئذ هل نفضــل فاجنر الحقيقى أو فاجنر المدخول عليه . انها علي كل حال « بدعة العصر » فيما أرى . ذلك الذى يسمونه « تجديد الشباب » للآثار القديمة . أهو تأثير العلم الحديث وحلمه الدائم باعادة الشباب الى الغدد المنهوكة والجسم الهرم؟ ان آثار الذهن قد بدأت تتأثر هذه النظريات . وان كلمة « تجديد الشباب » للمؤلفات القديمة تجدها على لسان الكثيرين اليوم . تذكر عمل الشاعر الفرنسى « كوكتو » فى تجديد أعمال شاعر الأغريق « سوفوكليس » ! أى خطر على تراث الأقدمين لو تمكنت من الناس مثل هذه الافكار . إلا أن يكون فى ذلك العمل حياة للقديم من خلال الأطار الجديد . فهو إذن عمليـة انقاذ وبعث وتجميل . وعلى ذكر العلم الحديث وأثره فى مسائل الفن والفـكر . أخبرك بأمر كتاب عجيب هو كتـاب ulysses لجيمس جويس . لقد كان لهذا

الكتاب صيت رددت صداه جدران صالونات الأدب بباريس ، حتى قبل أن يترجم الى الفرنسية ، وقد عد من قرأه من أدباء الفرنسيين (ونادر من قرأه إذ ذاك) أديباً ذواقة لاتخفى عليه خافية ، شأن كل عمل يتعهد بترويجه واذاعته من يسمونهم les snobs . وهم لا يذيعون إلا كل عمل معجز . والمعجز فى هذا الكتاب انه يبلغ نحو ٩٠٠ صفحة من الورق الكبير والحروف الصغيرة وكله إملال وإضجار فهم واثقون من ان الكثرة الغالبة سوف تعجز عن مطالعة هذا الكتاب . غير إن هذا ليس معناه خلو الكتاب من القيمة الأدبية . ان التطويل إلى حد الاضجار والاملال قد سبق أن قاسيناه فى كتب مثل « الحرب والسلام » لتولستوى ، وخرجنا مع ذلك فائزين . على ان فكرة جيمس جويس فى هذه القصة الطويلة التى ترتكز على « المنولوج الداخلي »

هى أن يترك بطله يتكلم بكل مايرد على خاطره ويخرج كل مايخالج نفسه . كل فكرة فاضلة أو سافلة خيرة أو شريرة تافهة أو قيمة لا بد أن تسجل . فهو يريد أن يقول لنا ان (البسيكولوجية) الصحيحة هى أن لانتخير أشياء وننبذ أشياء مما يدور فى نفوس الأشخاص . انما يجب أن نثبت كل ما فى نفوسهم حتى مجرد الخواطر الفجائية الطارئة . وهو عمل لا يستقيم معه بالضرورة بناء القصة ولا يسمح به مجال الصفحات المعقول . لذلك ضرب المؤلف الانجليزى بالبناء الروائى عرض الحائط ثم لم يبال أن يبلغ بعدد صفحاته ماشاء وشاءت له الحماقات التى تمر بخاطر بطله فى ساعة من الساعات . وهى ليست حماقة واحدة وليست حماقتين . ولكنه عدد لاينتهى ولا يمكن أن ينتهى . وهل تنتهى السخافات التى تمر فى لحظة برأس إنسان ؟ قد كنت أظن ان مثل هذا

الكتاب يظهر ثم يمر فى سلام . ولكن المروع فى الأمر هو أن يصبح فيما أرى (بدعة العصر) فهاهو ذا كتاب لألدس هكسلى Point counter point ترى فيه أحد الأشخاص يبدو متبرما بمعشوقته وقد خبت جذوة حبه ويريد لتلك الصلة بينهما حسن الختام . هذا حسن . ولكنه يحادث نفسه فاذا هذه النفس لاتحدثه فى الحب وحده ولا فى تبكيت الضمير ولا فى التريث والشفقة بل ولا حتى فى الشعر والفن بل تحدثه فى الفلسفة وفى الاقتصاد وفى الاشتراكية ثم بعد ذلك ترتل أشعاراً لشكسبير . وإذا استمرت هذه النفس فى حديثها على هذا النحو فان المؤلف لن يستطيع قطع هذا الحديث قبل ملء جزءين أو ثلاثة أجزاء . انى لست ساخطا على هذا النوع من التأليف كل السخط ، فانى مدرك لقيمة مثل هؤلاء الروائيين ، مستطيع أن أقارنهم بالروس من

بعض الوجوه . فان دقة التحليل والنزول إلى أعماق النفس والافاضة فى تلوين الأشخاص والاحاطة بكل ماينبض فى قلوبهم من خوالج تكونت أو ما زالت فى دور التكوين . كل ذلك مشترك بين هؤلاء الانجليز وبين الروس العظام مع هذا الفارق : ان ماعند الروس من نزعة صوفية mystique ! يقابله ماعند الانجليز من نزعة انتقادية satirique . غير انى لا أظن مطلقا ان نظرة الروس للبسكولوجية الروائية بلغت هذا الحد الذى بلغه الانجليز اليوم . انما هى بدعة تولدت بتأثير علم النفس الحديث . انك قد تجد عند الروس شيئا من هذا « المنولوج الداخلى » ولكنهم لم يضعوا فيه إلا كلاما مختارا متسقا مع بناء القصة وجوهر الفكرة . أما أن يلقى فيه كل شاردة وواردة كأنه طبق خضروات منوعة فهو ما لم يصنعوه . ان « السلطة » الروسية la salade russe

من ابتداع الروس حقا ولكنهم لم يدخلوها على مائدة الفن الروائى الروسى !

أرجو منك يا اندريه أن ترتاب قليلا فى أحكامى الأدبيـة والفنية . فأنا كما تعلم أحب بطبعى البنـاء السليم فى كل خلق . ولا شىء يرضى غريزتى الفنيـة مثل الصحة فى البناء ، سواء كان هذا البنـاء لهيكل آدمى أو فنى . وقوة البناء لا تتمثل فنيا أبرز تمثيل إلا فى فن العمارة وفى السانفونية الموسيقية وفى القصة التمثيلية . ولعلك مستطيع تعليـل إيثارى للقصـة التمثيلية فهى كما ترى ألزم وأقرب إلى دقة البنـاء من القصـة المروية . وقد تستطيع أخيراً أن تعلل حبى لصحة البناء بأنى معتل بنـاء الجسد . فنحن لا نحب أحيانا إلا ما ليس فى يدنا .

نعم ان الفن عندى بنيان جميل . لذلك لا تنتظر منى أن أحب هذه الطريقة الحديثـة فى « المنولوج

الداخلى » . قد أحبها على شريطة : أن نخرج قصة كهذه من دائرة الفن لندخلها فى دائرة العلم ، وأن نطلق على مثل هذه القصة اسم « سجل أو ملف نفسية فلان » . إن الفن هو كما قال «هكسلى» نفسه فى ذات الرواية : ليس هو الحقيقة وليس هو الواقع بل شىء آخر : انه الحقيقة مقطرة ومصفاة كيمائيا . هذا صحيح . وإذا كان الماء يصفى ويقطر للناس فى معمل كيميائى ، فان الحقيقة أيضاً تصفى وتقطر للناس فى معمل المؤلف الروائى ... وهذا المعمل هو : الفن . نعم . ان الفن ليس الطبيعة ولا الحقيقة ، إنما هو تقطير الطبيعة والحقيقة من خلال « أمبيق » الفنان . إذا كان الأمر كذلك فلماذا تتجه الرواية الحديثة إلى إيراد الحقيقة بواسطة سجل يرصد فيه ما حدث فى الدقيقة والثانية داخل نفس فلان كما تسجل الأرصاد الجوية ؟ إنى على كل حال لست نادما على قراءتى هذه

القصة ...

فلقد جعلتنى أستكشف فى نفسى القدرة على المطالعة فى الانجليزية مباشرة . نعم إن تركى هذا للغة أعواما طوالا لم يؤثر إلا فى قدرتى على المحادثة بها . لماذا إذن أنتظر ترجمة مؤلفات برنارد شو إلى الفرنسية وأنا مستطيع فهمه فى لغته الأصلية . انه الكسل ولا شىء غير ذلك . إنى كسلان بالطبع . ولكنى الآن أقرأ بالفعل برنارد شو فى الانجليزية وأتذوق سخريته ولذعه وفكاهته وأستعذب أسلوبه السهل السلس ذا الروح والرائحة ...

على ذكر الأدب الانجليزى أحب أن أقول لك أمراً لفت نظرى منذ غرقت فى دراسة هذا الأدب . انه أدب مغامرات . ولا يجب أن يطلق عليه غير هذا الوصف : مغامرات بأوسع معانيها وأجملها وأشرفها . فأعمال والتر رالى وسكوت ودانيال

دفو (روبنسون كروسو) وروبرت لويس ستيفنسون (جزيرة الكنز) هى مغامرات بحرية. وأعمال ديكنز وجالسورثى هى مغامرات اجتماعية. وأعمال شكسبير وبيرون مغامرات نفسية إنسانية. وأعمال ما كولى وكارليل مغامرات تاريخية. وأعمال ويلز (فى قصصه العلمى) وبرنارد شو خصوصاً فى Back to Methuselah ليست سوى مغامرات ذهنية. إن الأدب الانجليزى مهما تشرحه تجد روحه وجوهره فى كلمة «المغامرة» لعل هذه الجزيرة المنعزلة قد طبعت نفوس أهلها بهذا الطابع الغريب: حب السفر عبر البحار بحثاً عن المجهول: بحار الارض أو بحار المجتمع أو بحار الماضى أو بحار النفس أو بحار العقل ...

هذا لاتجده فى الأدب الفرنسى مثلا. أنه أدب «الشكل» la forme فى جماله الساحر. أدب المحادثات للبقة النبيلة، أدب التفكير الرائق الهادىء، أدب

التعبير الرائع والمنطق البارع . هو أدب الوطن الفرنسي والصالون الفرنسي والصيحة الفرنسية القائلة إن « باريس » هي عاصمة الكون ولا شيء وراء باريس . بالاختصار هو أدب الاستقرار لا أدب الضرب في البحار ...

وبعد . تقول لي أنك سرت في جنازة المأسوف عليه « بول سوديه » وأنك مررت مع الجمع حول التابوت وتناولت قمقما فضيا حركته في الهواء بعلامة الصليب ونضحت به الجثمان . ثم سلمته لمن خلفك في الصف . ثم تقول أنك كدت تضحك فتسخط عليك الناس لأنك تذكرتني فجأة وأنا في مثل هذا الموقف يوم تشييعي جنازة زوج بنت مدام شارل وما وقع لي بالتمام من أشياء تثير الابتسام .

آه لا تذكرني يا أندريه . لقد كان حقا يوما محرجا لكنه انتهى بسلام ... ؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه :

اليوم الخميس ، ولم تصلنا رسـالة الخميس . وقد عودتنـا ذلك ووعدتنـا به . هلا رأيت بول سوديه ومواظبته على إرسال مقالات الأربعـاء لجريدة « الوقت » عشرات الأعوام بانتظـام ، لم ينقطع فى خلالها إلا لمرتين : موت زوجته وموته هو ! وهل تظن أنك أقل من بول سوديه فى (وقتى) أنا ؟ على أنى أسأل لك عمراً أطول من عمره ، وأعطيك أجراً أكثر من الأجر الذى كانت تعطيه إياه جريدة (الطان) لو كنت تقدر قيمة الود ! تستطيع

أن تقول إنى أعيش طول الأسبوع على رسالتك فاذا كنت تريد أن تحرمنى غذائى الأسبوعى فأنت وشأنك . وبعد فلنتحدث فى أى شىء . قرأت مقال (فرنان فندريم) فى پول سوديه . وهو خصمه المعروف فى المناضلات الأدبية . أى جبن وأى نذالة ؟ مقال لو أنه كتبه وتجرأ على نشره فى حياة الناقد العظيم لما استطاع الاقامة بعدها فى فرنسا يوما واحداً ولكنه الآن يقول ما يريد لأن الميت لايستطيع جواباً . لقد جرد سوديه من كل حسنة وألصق به من النقص مايخرجه عن وظيفة ناقد . ولكن أعجب ماجاء فى مقاله عن پول سوديه قوله : إن الجانب الفنى la technique فى الأعمال الأدبية كان يفلت منه دائما لأنه لم يمارس بنفسه التأليف من حيث هو خلق فنى ؟ ! فما قول فاندريم هذا فى فلاسفة الألمان ممن نقدوا الفن من « عمانويل كانت » إلى « فردريك

نيتشه » وما قوله فى lses esthèticien الذين شرحوا لنا ونقدوا فن فيدياس وپوليكليت وبرا كسيتيل وهم لم يصنعوا قط تمثالا من الطين أو العجين ؟ وما قوله فى (جول لمتر) و (سارسى) و (تين) وقد قضوا حياتهم ينقدون فنونا لم يمارسوها قط بأنفسهم ، حتى العرب ونقاد الشعر العربى فى آدابنا (مثل « الأصمعى » و « حماد عجرد » لم يمارسوا هذا الفن مع روايتهم لكل ما قيل فيه . وإنى لأذكر قول أحد نقاد العرب هؤلاء وقد سألوه (كما سأل فاندريم بول سوديه) لماذا لا يقرض الشعر ؟ فأجاب : أنا كالمسن يشحذ ولا يقطع . ولكن فاندريم يريد أن يقطع أوصال جثة خصمه وكفى !

انى لم أزل أطالع رسالتك الماضية فى إعجاب . ان فيها أشياء أقرؤها ببطء فتؤثر فى نفسى تأثيراً شديداً . ذلك انها تجعلنى أتصور انى مازلت أقيم فى

حجرتى بشارع بلبور . وا أسفاه ! يخيل إلىّ أنى نسيت رقم الحجرة فى الطابق الخامس . أظنها كانت رقم (٤٨) ؛ لأنها (هى) كانت تقطن الحجرة رقم (٣٨) ... انى إن نسيت رقم حجرتى فلن أنسى مطلقا رقم حجرتها . أما الببغاء . . . آه يا اندريه . ترى أين هو الآن ؟ أو لم يزل يحمل اسمى كما كان ؟ ... فيظل بذلك اسمى يردد صداه فى باريس ... على الأقل حتى يموت الببغاء ! انى أعرف أن هذا الطائر طويل العمر ! نحن معشر المصريين نفكر دائما فى تخليد أسمائنا . ولقد اتخذ جدى الأهرام لهذا الغرض . ولكنى أنا اكتفيت باتخاذ ببغاء ... على قدر مالى واستطاعتى . ألا ترى أنى مصرى بالدم والوراثة ؟ أتدريه ... اكتب إلىّ كثيراً ... ذكرنى بحجرتى فى شارع بلبور . ترى من يقطنها الآن ؟ أحد العمال ولاشك أو إحدى العاملات . فهذا حى عمال وعاملات . ومن يدرى

فقد يكون من سكانها اليوم محبان عاشقان ... أو زوجان سعيدان ... أما أنا مع الأسف فلم أعرف فى هذه الحجرة غير حياة شبه زوجية فاترة مع ساشا شوارتز . وحياة حب مع « إيما دوران » لم يدم هناؤه طويلا ... ؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه :

تسألنى من هى ساشا شوارتز ؟ عجباً ؟ ألا تذكرها ؟ أو لم أقص عليك قصتها من قبل ؟ . . أهان أمرها علىّ بهذا القدر ؟ أم انى لا أحب أن أذكر دائماً غير القصص الذى لم يتم ولا يمكن أن يتم . . ؟ ! حدث ذلك ياسيدى فى مساء يوم جميل جلست فيه مع مسيو هاب إلى مائدة مشرب صغير bis ro فى مونمارتز . وكنا نتحدث فى أمر حوار صغير كنت قد كتبته ودفعت به إليه ليرى رأيه فيه . فرآه خفيف الروح قوى التركيب سلساً سائغا

يستلب لب القارىء استلابا ... وقال لى : « انى أراك قد اعتصرت موليير وبومارشيه وماريفو اعتصاراً ! » ففرحت بقوله هذا كثيراً وطلبت كأساً أخرى من (البرنو) ... وما كدت أتناول منها جرعة حتى دخلت المشرب غادة ذات جسم ذكرنى بتمثال افروديت . وكان فى صحبتها شاب برنزى اللون جميل الطلعة كأنه أبو لون ... ولست أدرى أسكرت من البرنو أم من إطراء صاحبي أم من روعة هذه الغادة ... كل ما أذكر أنى تمايلت على مسيو هاب صائحاً : « ناد الجرسون واطلب سكيناً ! » فقال دهشاً : « سكيناً ؟ تصنع به ماذا ؟ فقلت : « أقتل نفسى عند أقدام هذه المرأة حبـا وجنونا وغراما ! . . » فالتفت (هاب) إلى المرأة ثم إلى صاحبها وقال لى : صدقت . ولكنها كما ترى ذات رفيق وأى رفيق . . لا أمل لك أيها الصديق ... إذا أصررت على السكين فانى أنادى لك

الجرسون ! ..» ولبثنا ساعة ننظر إليها ونتحسر ...
ثم نهضنا وانصرفنا كل إلى شأنه . ومضت أيام قلائل
وإذا مسيو (هاب) فى أثرى يبحث عنى فى مظانى ،
حتى عثر بى فبادرنى صائحا : أين أنت ؟ أين أنت ؟
أيها الرجل السعيد ... افرح بسرعة فان عندى لك
خبراً ساراً ... انها لك منذ اليوم خالصة مخلصة ! .
فلم أفهم مراده بادىء الأمر وقلت له : عمن تتكلم ؟
فقال : عنها هى ... عن تلك المرأة . فقلت : أى
امرأة ؟ فضاق صدره بى : عجباً لك ... أى
امرأة ؟ المرأة التى رأيتها فى المشرب منذ أيام ...
فتذكرت كل شىء وصحت : حقاً :.. حقاً .. أخبرنى
ماخبرها ! فقال : « ياللحظ عندما يواتى الانسان !
لقد كنت بهذا المشرب البارحة وإذا بى ألمح امرأة
جالسة إلى مائدة بجوارى أمامها (بوك) من البيرة لم
تمسه شفتاها . وقد أخفت وجهها فى منديلها

وطفقت تبكى بكاء مراً ... فعجبت لأمرها ولبثت أرقبها حتى تبينت آخر الأمر أنها صاحبتنا (افروديت) فتحينت منهـا فرصـة وحادثتهـا . ولم أزل بها حتى اطمأنت إلىّ وكشفت لى عن بلائها : صاحبها البرنزى اللون وهو أسبانى يدعى (جارسـبا) قد هرب إلى بلاده وهجرها بلا مأوى ولا نقود ولا معين . وهى أجنبية هى الأخرى — ألمانية أو روسية لست أدرى على التحقيق .. اسمها (ساشا شوارتز) . وهى تجيد الفرنسية . وقد كانت تعمل (سكرتيرة) فى إحدى وكالات السفر ؛ فالتقت بهذا الشاب الاسبانى فاستلب لبها وأخرجها من عملها . وختم قصـته معها على هذا النحو . وليس من اليسـير أن تجد سريعاً عملا يقيها شر الجوع . فهي لا ترى فى رأسها غـير أفق حالك تبـدو منه فـكرة الانتحار كأنها شمس سوداء ! . . فبادرتها صـائحـاً مرتاعاً : تموتين ؟ أنت ؟ مهلا

ياسيدتى مهلا ؟ تموتين وعندى شخص يموت فيك حباً وهياماً وغراماً ! » . فنظرت إلىّ بعينين كلهما دهش واستفهام . فأخبرتها بخبرك وضربت لها موعدا مساء اليوم بذلك المشرب لأقدمك إليها . كل أمل هذه المرأة الآن هو أن تجد لها مأوى ومعيناً . ولا شك عندى فى أنك مستطيع أن تحقق لها هذا الأمل ... » تصور ذهولى يا اندريه وأنا أسمع من مسيو « هاب » كل هذا . . . لقد حسبته يمزح ولكن الموعد حانت ساعته . فلم أر فائدة فى اللجاج ، فجلست معه أنتظر . وإذا بالفعل ... أبصر لدهشتى « افروديت » تدخل علينا فى حال كسيرة . وقد أفسدت الدموع أهدابها وأنساها الحزن الالتفات إلى هندامها . فنهض « هاب » لاستقبالها ، ونهضت أنا أيضاً كالخجل المأخوذ . وحياها صاحبى ألطف تحية وقال لها باسماً وهو يقدمنى إليها : « كنت تريدين

الانتحار يا آنستى ، فها هو ذا شىء أهون قليلا من الانتحار .. » فنظرت إلىّ الفتاة بابتسامة وديعة فيها أثر الحزن وفيها أيضاً الاستسلام . وكأن كل شىء فيها ينطق : « ليس الآن أوان الفحص والفرز والاختيار » وتركنا «هاب» وقد رأى أن مهمته قد انتهت . فلبثنا وحدنا لحظة صامتين ، لا أدرى ماذا أقول ... إلى أن سألتها آخر الأمر عن أمتعتها فقالت لى إنها مودعة عند صديقة لها متزوجة ، أضافتها الليالى السابقة ... ولم يعد من اللائق أن تفرض ضيافتها على أسرة أكثر من ذلك ، وكانت تلك الأسرة تقطن ضواحى باريس والوقت ليلا . فرأينا أن نرجىء طلب الأمتعة إلى الصباح وذهبت بالغادة الحزينة إلى أحد المطاعم فتعشينا وأنا أحاول إضحاكها والتسرية عنها ، ثم قدتها إلى مسرح تعرض فيه رواية « فودفيل » مفرحة . فانتعشت قليلا

وضحكت مع الضاحكين ، وخرجنا وقد أنست إلىّ بعض الشيء ، وبدأت تتوطد بيننا الألفة ، وذهبت بها إلى حجرتى بشارع بابور ، فسرت كثيراً بالمطبخ الصغير الملحق بالحجرة ، وما فيه من أدوات لشيّ اللحم وجهاز لموقد يشعل بالغاز ، وسألتنى أن أعيرها تلك الليلة « بيجاما » مما أرتديها للنوم . ففعلت . وتشاغلت بالنظر فى كتبى المكدسة فوق المكتب . ولك أن تصدق أيها الخبيث اندريه أو لاتصدق . فوالله لم أحاول اختلاس النظر إليها وهى تخلع ثيابها ولا أذكر أين فعلت ذلك . هل خلف خزانة الثياب أو فى المطبخ . كل ما أذكر أنها طلعت علىّ فجأة وهى مرتدية « البيجاما » ويكاد نهداها البارزان يفتقان الرداء . فوقع الكتاب من يدى . فابتسمت . ابتسمت افروديت . وكانت ليلة لا تنسى ... وبزغ الصبح . وفتحت عينى وقد راحت السكرة وجاءت

الفكرة . ونظرت إلى تلك المرأة النائمة فى فراشى وقلت لنفسى : « ماذا أنا صانع بها ... اليوم الأحد وهو يوم زيارتى المعتادة لمتحف اللوفر . هل أصحبها ؟ انها لن تطيق المكث فى هذا المتحف ست أو سبع ساعات كما أفعل . وإذا احتملت فانها لن تستطيع الوقوف ساعة أمام الصورة الواحدة كما أصنع . وإذا فعلت فانها لن تسكت عن بعض التعليقات السخيفة التى تبدد جو تأملاتى وتفسد على نظام تفكيرى .. ثم انها ستغير برنامج حياتى . انى الآن آكل وأعمل وقتما أريد وحيثما أريد . ان حياتى غير المقيدة بمكان ولا بزمان ولا بانسان ستصبح منذ اليوم داخل إطار محدود من صنع هذه المرأة . انها عبء وتبعة . انى لم أخلق لأسير فى الحياة وامرأة معلقة بذراعى ! ونهضت من فراشى على عجل وارتديت ثيابى وكتبت كلمة تركتها لها فوق المكتب خلاصتها : « انى رجل

بوهيمي لا يصلح لرعايتك والسهر على راحتك .
فأرجو أن تحليني من تبعة إسعادك ... فاني لست
لهذه النعمة بأهل ... » . وألقيت عليها نظرة أخيرة
وهي في نومها العميق المطمئن ... وانصرفت . ذهبت
تواً إلى مسيو (هاب) وأخبرته بما حدث فكاد يصعق .
فهدأت من روعه وضاحكته قائلا : (لا تنس أني رجل
شرقي متوحش . المرأة عندي يجب أن تحبس في (الحريم)
أو على الأقل لا يكون لها دخل كبير في حياتي . إذا
أرادت (ساشا) أن تتخذ من مسكني مأوى لها
فلا مانع لدي ... على شرط أن تتركني حراً ... فلا
تخرج معي ، ولا تشعرني بأن لها في حياتي وجوداً . »
ففهم (هاب) مرادي وقال : (لا بأس . أظنها ترضى
بهذا الشرط ... ولكن نفقات طعامها ؟ فقلت له :
(في مقدوري أن أعطيها كل يوم ثمانية فرنكات

أو تسعة [١] فقال (هاب) : « لغذائها وعشائها معاً ؟ » قلت (نعم) فقال : « اجعلهـا عشرة فرنكات » ... فقبلت . وتعهد هو بأن يلقاها فى ذلك اليوم ليعرض عليها هذا الوضع الجديد . وانصرفت أنا إلى متحف اللوفر فغرقت طول يومى فى قاعة الفن الاغريقى متنقلا بين تماثيل (پالاس) و (ابولون) و (فينوس) فى أوضاعها المختلفة .. آه يا اندريه .. ان فن الاغريق هو تجميل الطبيعة إلى حد إشـعارها بنقصها ... لـكأنهم يريدون أن يقولوا للطبيعة : انظرى ... كان ينبغى أن تصنعى هكذا ! . . ومضى أكثر النهار فدلفت إلى قاعة الفن المصرى القـديم . ولا يفصـل بينها وبين قاعة الاغريق — كما تعلم — غير باب صغير . ما كدت أتخطى العتبة حتى شعرت بفرق عجيب ... انه عالم آخر ... ان فن مصر القديمة هو تحـد صارخ

---

(١) أى ما يعادل وقتئذ ثمانية قروش مصرية .

للطبيعة .. لكأنهم يقولون للطبيعة : انظرى ... لا شأن لنا بك .. ولا بمخلوقاتك .. إننا نستطيع من مخيلتنا ومن تفكيرنا أن نخرج مخلوقات أخرى غريبة عجيبة لم تخطر لك على بال ... » على أن الذى استلفت نظرى فى هذا الفن هو أن أسلوبه قد أوحى إلى أسلوب الفن الحديث فى العصر الحاضر إلى حد كبير . وخرجت من اللوفر وأنا أقلب فى رأسى الملاحظات والمقارنات . . . وذهبت إلى مطعم صغير أتناول عشائى ... ثم عدت إلى مسكنى فوجدت المسكينة (ساشا) قد غادرته تاركة لى هذه الكلمة فوق المكتب : (سيدى . . . انك لا تريدنى . وهذا هو كل ما فى الأمر . ربما خيبت ظنك . ولكنى أبحث عبثاً وأستعرض فى ذاكرتى كل ماحدث أمس . فى المساء والليل علنى أجد اللحظة التى أكون قد خيبت ظنك فيها . وليس فى مقدورى

سؤالك أو الاستفسار منك . فلقد ذهبت تاركا لى
تلك الكلمة التى تدعونى فيها — على نحو ظاهر —
إلى الرحيل . إذن ... فلم يبق لى إلا أن أسير فى
طريقى ... أود على كل حال لو حدثتك مرة أخرى .
فاذا لم تر بأساً فى ذلك فانى أرجو منك أن تبعث إلىّ
كلمة بعنوان صديقتى المسطور فى أعلى خطابى ... »
فى الحق يا أندريه انى تألمت وندمت . لقدكان تصرفى
خالياً من الرفق والرحمة ، ولبثت أفكر وأنا أجيل
النظر فى حجرتى الخالية ... ان وجود هذه المرأة
هاهنا ليس عبئا بالقدر الذى تصورته . انها كانت
تملأ المكان على كل حال بعطرها النسائى فتغير قليلا
من هذا الجو المغبر بتراب الكتب . ما أجملها عند ما
كانت مرتدية ثوب النوم الذى أعرتها إياه البارحة .
ليتها تعود . ما أوحش الليل بدون امرأة ! وقضيت
ليلة مضطربة . وفى اليوم التالى ذهبت إليها فى مسكن

صديقتها ، وحملتها هى وأمتعتها فى سيارة وعدت بها إلى حجرتى بشارع بلبور . وأخبرتنى فى الطريق أنها التقت بمسيو هاب فى اليوم السابق وأنه أخبرها بالشرط والنظام الجديد ، فعاهدته على القيام بتنفيذه على أدق وجه . وهكذا استقر بنا الحال أياماً : وكان لحجرتى مفتاحان استبقيت واحداً وأعطيتها الآخر . فاذا كان الصباح تركت لها فوق مكتبى الفرنكات العشرة ثم انطلقت حراً طول يومى فلا أرى لها وجهاً إلا ليلا . . هنالك أحيان يحلو لى فيها أن ألزم حجرتى لأكتب الساعات الطوال ... فما كانت تنبس بحرف . بل كانت تقرأ . تقرأ كل ما يقع تحت يدها من كتبى المكدسة . لقد عجبت أول الأمر لكثرة مطالعتها ولاجادتها لغات عدة ... إلى أن قصت علىّ نشأتها ... وعلمت أنها ابنة مدير إحدى شركات السكك الحديدية فى ألمانيا . . . فلما

انهارت الشركة بعد الحرب بانهيار المارك والنظام الاقتصادى الألمانى . . . انهارت أسرتها أيضا . . . فمات أبوها وتشرد أخوتها وأخواتها فى أرجاء أوروبا . . . ونزحت هى إلى فرنسا حيث وجدت ذلك العمل الذى شغلته فى وكالة السفر . . حتى فقدته هو الآخر جريا وراء قلبها . . إنها بوهيمية هى الأخرى من الطراز الأول . على أنها لم تفهمنى أيضاً كما كان ينبغى . فانه لم يمض على نظامنا هذا عشرة أيام حتى نسيت مراميه وأغراضه . وإذا هى تترك لى فوق مكتبى هذه الكلمة : « عزيزى . . انك تتغيب طويلا . . لكأنك تتعمد الهرب من حجرتك ومن وجودى على الرغم من الجهد الذى أبذله حتى لا أضايقك أو أثقل عليك . وحدتك هذه تكاد تشعرنى بأنها مظهر استياء منى . وانى لأبحث عبثا عن السبب . . ياصديقى العزيز . . انى لأرجوك من كل قلبى أن

تخبرني عما لا يعجبك مني . قلها بصراحة . . فربما كان في الامكان رتق رباط الثقة والاطمئنان الذي يصل أحدنا بالآخر . هذه الثقة ... وهذا الاطمئنان الذي تخلو منه نفسي في هـذه اللحظة ... ربما كنت مخطئة في هذه التقديرات . ربما كنت مسرفة في الوهم فأخذت شغلك بعملك على أنه شغل عني . مهما يكن من أمر طمئني بكلمة . إني حزينة جداً . إني خارجة أستنشق بعض الهواء وأرفه عن نفسي قليلا . ولكني أرجو أن تكون على ثقة من أن إخـلاصي هو لك وباق لديك ... » الواقع يا أندريه إني عجبت لهـذا الخطـاب . إن الاخلاص أو الحب أو أي عاطفة من هذا النـوع لم تكن داخلة ضمن الشرط بأي حال . وإني لأعـلم أن « ساشا » لم تحبني على الاطلاق . حقيقة هي لم تذكر لي شيئا عن صاحبها الاسباني منذ مجيئها . ولكن ليس معنى ذلك أنها نسيته . لقد

كانت تقرأ ذات ليلة فى الفراش كعادتها قبل النوم . وكنت أنا أكتب على مكتبى أو أطالع ، وإذا بى أسمع صوت عبرات مكتومة فرفعت عينى فوجدتها تحاول إخفاء بكائها ، فسألتها عما بها ، فكانت صريحة وقالت إن يدها وقعت تلك الليلة على « دون كيشوت » وأقاصيص نموذجية من أعمال سرفانتز فغمرها فى ذكريات .. ثم قالت وهى تمسح دموعها بيدها : « لم أكن أعلم أنى أجد هنا كتباً اسبانية » . فقلت لها : « عجباً ! أو كنت تريدين أن أتجاهل الأدب الاسبانى وأستبعد مؤلفات « سرفانتز » . ومسرحيات « كالدرون » وكوميديات « لوب دى فيجا » لأن لك خليلا اسبانيا ؟ » أجل يا اندريه .. لم يكن بيننا حب قط .. ولا أذكر اننا تبادلنا كلمة واحدة فيها حرارة العاطفة الملتهبة . هذا شىء لا يمكن أن يحدث مع امرأة موجودة . موجودة أمامى فى كل وقت .

ان اللحظة الوحيدة التي أحببتها فيهـا حقا هي ساعة دخولها المشرب أول مرة مع صـــاحبها الاسباني . انها كانت رائعة ، لأنها كانت شيئا في السماء مثـل كوكب يتلألأ لا يمكن أن تمتد اليـه يدي . ولـكن هذا الـكوكب ما لبث أن وقع في كفي فاذا هو مصباح ضئيل . يحتاج إلى يدي القاصرة لتملأه بالزيت وتحميه من التحطم والسـقوط . اني لم أزل أحب « إيما » لأنها شيء بعيد . . غير موجود في كل وقت . . يصل إليّ غناؤها من نافذتها كأنه شعاع يأتيني من بعيد . انها أعطتني بعض أسرار نفسها وجسمها . . ولـكنها مع ذلك ليست في يدي . شأنها شأن الطبيعة التي تعطينا وتستعصي علينا . ان الحب قصة لا يجب أن تنتهي . . قصة « إيما » مستمرة لا تريد أن تنتهي . ان الحب مسألة رياضية لم تحل . . ان جوهر الحب مثـل جوهر الوجود . لا بد أن يكون

فيـه ذلك الذى يسمونه « المجهول » أو « المطلق » .
ان حمى (الحب) عندى هى نوع من حمى (المعرفة) واستكشاف المجهول والجرى وراء المطلق . . ماذا يكون حال الوجود لو أن الله قذف فى وجوهنا نحن الآدميين بتلك المعرفة أو ذلك المطلق الذى نقضى حياتنا نجرى وراءه ؟ ! لا أستطيع تصور الحياة يومئذ . انها ولاشك لو بقيت بعد ذلك لصارت شيئا خاليا من كل جمال وفكر وعاطفة . فكل مانسميه جمالا وفكراً وشعوراً ليس إلا قبسات النور التى تخرج أثناء جهادنا وكدنا وجرينا خلف المطلق والمجهول . لو أن « إيما » قبلت أن تترك حجرتها كما عرضت عليها وتأتى لتقطن معى فى حجرتى لكان حظها عندى حظ (ساشا) . هنا الفرق بين (الغرام) و (الزوجية) . انى أدرك الآن لماذا يفتر الحب الملتهب بين الخليلين إذا تزوجا . وقد

يعود إلى سـابق اشتعاله إذا عادا خليلين ، لـكل منهما حياته المنفصلة . ان الانفصال هو الذى يغرى بالاتصال .. لهذا كله كانت حيـاة (ساشا) معى أقرب إلى الحيـاة الزوجية الخالية من أى عاطفة قوية . فما معنى خطـابها هذا الذى كتبته اليوم ؟ أتراها أنوثة المرأة تنسى كل شرط وكل اتفـاق ولا تذكر إلا الرغبة فى أن تشغل قلب الرجل ؟ . . وماذا أنا قائل لها ؟ مادمت أوقن بأنها لا تحبنى . .

وطويت رسـالتها وطرحتهـا جانباً . ومضيت فى عملى ومطالعاتى . . . إلى أن عادت ومعها نسخة من صحيفة يوميـة ، وأخبرتنى مبتهجة بأنهـا وجـدت لنفسها عمـلا . فلقـد قرأت إعـلانا فى الجريدة لأحد المسارح الراقصـة يطلب فتيات لهن أجسـام جميلة تصـلح لرقص المجموعة . فتقـدمت فى الحـال وكان نصيبها الفوز . فما من شك ان

جسمها يعد خير نموذج لجسم المرأة الجميل . على ان المسرح لن يعطيها بادىء الأمر أكثر من خمسمائة من الفرنكات فى الشهر ، وقالت لى وهى تخلع قبعتها وتنثر فى الهواء شعرها الأشقر :

« لا أستطيع كيف أشكرك على معونتك لى ، ولكنى أرجو منذ الغد أن تكف عن منحى الفرنكات العشرة . على انى لم أزل بعد فى حاجة إلى مشاركتك حجرتك . . لأن ربحى كما ترى لا يسمح لى حتى الآن باقتناء مسكن خاص . . » فقلت لها :

« ياعزيزتى . . . الآن فهمت سر خطابك . . . أحسبت انى أهرب منك استياء وتبرما وضيقا بعبء العشرة الفرنكات ؟ ! .. فخرجت تبحثين عن عمل ؟ على كل حال ، أنت حرة فى شؤون حياتك : وانى دائما عند تعهدى بأن اكون فى معونتك وخدمتك على الوجه الذى تريدين » . واستمرت حياتنا المشتركة

تجرى فى مجرى هادىء . فكلانا له شغل منفصل عن الآخر ، وحياة مخالفة لحياة الآخر . لا يجمعنا إلا الليل فى فراش واحد ، ولم يخطر على بالى حتى مجرد التفكير فى نوع عملينا أو المقارنة بين حياتى وحياتها منذ ذلك اليوم . فأنا طالب قانون وفلسفة وعلم وفن وأدب ، وهى راقصة فى مسرح راقص من طراز « الفولى برجير » أو « المولان روج » . . . لست أذكر اسمه . . . ولعلى لم أسألها عنه ... ولا بد أنها أخبرتنى باسمه وبخبره فلم أحفل بذلك ولم أع ما قالت ولم أنصرف بذهنى عما كنت أقرؤه وقتئذ أو أفكر فيه .. ولم أشعر أنا بتغيير فى نظامنا سوى انقطاعى عن منحها أى نقود . لقد حدث تغيير فى نظام حياتها هى . فهى تعود إلى الحجرة كل ليلة بعد التمثيل فى آخر قطار من قطارات المترو . تعود « بالماكياج » مطلية من رأسها إلى قدميها بالأحمر والأبيض

فليس فى مسرحها ولا فى بيتنا حمام ، فتدس جسمها المطلى فى الفراش على هذه الصورة ... لقد انزعجت حقا أول الأمر يوم نهضت فى الصباح فأبصرت جسمى أنا الآخر قد نضح بتلك الألوان ... ولكن انزعاجى لم يقف عند هذا الحد . انها تعلمت التدخين بالطبع وأنا أكره رائحة الدخان ... فالويل لى عند ما كنت آوى إلى فراشى ذات ليلة مبكراً . . . انها كانت تعود آخر الليل والسيجارة فى فمها وتسير فى الحجرة على أطراف قدميها حتى لا توقظنى وتطرح معطفها الثقيل عن جسمها العارى — إلا من « مايوه » الرقص — وتذهب إلى المطبخ فتأتى بشطيرة خبز داخلها سردينة ، فهى جائعة ، وتجذب من بين كتبى قصة لفلوبير أو بلزاك أو تمثيلية لبورتوريش أو لينورمان .. فهى مقيمة على عادة القراءة قبل النوم .. وتضىء المصباح الكهربائى على رأس السرير . ثم

ترفع عنى الغطاء برفق وحذر ... وتدخل الفراش إلى جانبي بسردينها ودخانها وكتابها وأحمرها وأبيضها وتحسب بعد ذلك كله أنها حرصت على عدم إيقاظى وإزعاجى ! .. لطالما نهضت لأنهرها وأطاب اليها أن تبطل هذا كله وتنام . فكانت تستعطفنى وتستمهلنى حتى تتم قراءة القصة ! « تتمين قراءة القصة ؟ الليلة ؟ ! ..» الواقع انها كانت سريعة القراءة إلى حد كان يدهشنى . انها تتم قراءة القصة التمثيلية فى ساعة واحدة . وأنا الذىَ أقرؤها فى يومين أو ثلاثة . ولكن هنالك فرقا هائلا بين قراءتى وقراءتها . انها تقرأ للحكاية فى ذاتها . أما أنا فلا تعنينى حكاية الكاتب بل يعنينى فنه وسر صناعته وطريقة أسلوبه فى البناء وخلق الأشخاص ونسج الجو وإحداث التأثير . انى أعيد أحيانا قراءة الفصل الواحد . بل الصفحة الواحدة مرات .. لكم أعدت قراءة موليير لا لشىء غير

دراسة طريقته فى تقديم الأشخاص ورسم أخلاقهم . تلك الطريقة التى تختلف أحيانا وتتغير فى كل رواية من رواياته .. لذلك لم تكن قراءة (ساشا) تصلح أساساً حتى للمناقشة ومبادلة الرأى .. وما كنت أجنى منها إلا ذلك المصباح المسلط على رأسى والدخان الذى يضيق به صدرى فى ذلك الهزيع الأخير من الليل . انها كانت أحيانا تخشى غضبي فتقفز فى مطالعاتها فصلا أو فصلين وتصل إلى خاتمة الكتاب سريعاً ، ثم تطفىء النور ، وتجذب الغطاء فوقها جذبة تتركنى أنا فى العراء ، فلا أتمالك نفسى ، وأقرصها قرصة تصرخ منها فى جوف الليل . ويأتى النهار ، فتستيقظ فى الضحى ، وأبقى أنا فى السرير كسلا .. وتسرع هى إلى ثياب الخروج فترتديها لتذهب إلى المسرح فى ميعاد التجارب (البروفات) ...

لبثنا معاً فى هذه الحياة ثلاثة شهور ، لم يختل

نظامها أو قل « فوضاها » قيد شعرة ، حتى تعودت احتمالها .. فندر غضبي أو ضجرى ، وبدأت هى تهتم بما أعمل بعض الاهتمام فكانت تسألنى أن أطلعها على ما أكتب من حوار أو قصص .. فما كنت أقبل ذلك .. لست أدرى لماذا .. أما هى فكانت تسألنى رأيى فى بعض الحركات الجديدة لرقصها فكنت أتبرم بذلك أيضاً فهذا ليس فى عرفى رقصاً فنيا ، الرقص الفنى عندى هو « بافلوفا » و « فولار » و « إيزادورا دونكان » . ورقص الجوقات والمجاميع فى الأوپرات الرفيعة أو فى (الباليه الروسى) أو حتى فى الرقصات الدينية التى نراها منقوشة فى الفن المصرى والهندى ، ولكنها كانت تحرك سيقانها ورأسها وذراعيها فى الحجرة فلا أجد مفراً من النظر . كنت أقول لها ان رقصها هذا فى المجموعة جماله ليس فى ذاته بل فى التناسق العددى لكميات الأذرع والسيقان

التى تتحرك فى وقت واحـد . وليته مع ذلك كان بالروح الفنى المعروف فى راقصات المعابد الهندية ؟ !

ولقد ألحت علىّ إلحـاحا شـديداً فى أن أذهب مرة لمشـاهدتها على المسرح . . وأحضرت لى تذاكر مجانية ، فلم أجد من نفسى يومئذ حافزاً على الذهاب . وليتنى ذهبت . . . وكاد ينتهى الشتاء فجـاءتنى ذات يوم تقول ان المسرح سيوفد الفرقة الراقصة لتقوم برحلة فى (نيم) و (اورانج) و (افنيون) فى جنوب فرنسا وقد تستغرق الرحلة شهراً أو شهرين وجعلت تتجهز للرحيـل وهى ترجونى وتزين لى أن أذهب معهم فى هذه الرحلة ، فضحكت للفكرة : (أذهب فى رحلة الراقصـات بأى صفة وعلى أى وضع ؟ أبصفتى صديق الراقصة . . هذا جميل جداً . . ومن يدرى ربما عدت من الرحـلة وقد عينت نهائيا راقصاً بالفرقة أو شيئا من هذا القبيل ؟

كلا ياعزيزتى ساشا . . . انى لا أستطيع أن أترك باريس واللوفر والكتب والحى اللاتينى ومونمارتر وبلبور . . اذهبي أنت وسيرى بمفردك فى طريق حياتك ، وانى أتمنى لك التوفيق والنجاح . . »

وودع أحدنا الآخر وداعاً حاراً ، وشعرت فى تلك اللحظة بشىء من السعادة لعودة حريتى الكاملة إلىّ . . ووحدتى المطلقة ... ؟

الاسكندرية في . .

عزيزى اندريه :

لو خطرلك أن تسألنى عن عملى طول هذا الزمن (من حيث الأدب والفن) لأجبتك على الفور هذا الجواب : هو العمل المتواصل على محو كل ماعلق بي من الأدب والفن . وقد نجحت . فلم يبق واحد من القلائل الذين كانوا يعرفون ميولى الأدبية يذكر هذه الميول . لقدنسوا الآن ذلك ، وأصبحوا يعرفون عنى كل شيء إلا الصلة بالأدب والفن . على أن هنالك شيئا واحدا لم أقو على محوه . انى يا اندريه مازلت أردد كل يوم فى أعماق نفسى كلما خلوت إليها

السانفونيات رقم « ٥ » و « ٦ » و « ٤ » و « ٩ » بكل تفاصيلها . إنى أصبحت آلف بيتهوفن إلى درجة يخيل إلى معها أنى فهمت سر كتابته وتأليفه مع جهلى المطبق بالموسيقى . إن أذنى لاتستطيع الآن أن تخدع فى أسلوب بيتهوفن بين مئات الأساليب لمئات الموسيقيين . ان قدرة بيتهوفن فى البناء الصوتى تكاد تفتح أمام ذهنى اسرار كل بناء فنى آخر . بل اسرار البناء فى الطبيعة نفسها . . . ؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه

قلت لك انى استطعت الاستغناء عن كل شىء إلا الموسيقى . هذا صحيح . وإنى بعد أن ختمت رسالتى السابقة إليك طفقت أفكر وأتساءل : لماذا الموسيقى دون التصوير مثلا ؟ إنى أحب التصوير كما تعلم . الواقع ان الآثار الموسيقية القيمة فى متناول يدى بمختلف الوسائل . أقربها وأيسرها الجراموفون . ولكن كيف وأين أتأمل هنا فى مصر لوحات « جيوتو » و « انجليكو » و « مملنج » و « رمبرانت » ؟ ان لدى بالطبع أغلب آثار عظماء

المصورين منقولة ومطبوعة طبعاً متقناً . وإنى لأتأملها من حين إلى حين . ولكن ليس الحال فى الصور كالحال فى الموسيقى . ان الموسيقى المنقولة فى اسطوانات تعطيك على قدر الامكان فكرة شاملة عن الأثر الفنى كله . ولكن الصورة المنقولة تحرمك أهم ركن من أركان العمل الفنى : وهو التلوين . ماذا يبقى لى مثلا من لوحة « باخوس » لدافنشى إذا جردتها من لونها العجيب . انها صورة فتى لا أكثر ولا أقل . فتى يمثل إله الخمر . ولكن اللون والتلوين كأنه السحر قلب الصورة فاذا هى عنقود من العنب . من عنب فلورنسا الأحمر الداكن . مانظرت مرة إلى هذه الصورة إلا صحت فى نفسى : يا لمعجزة الفنان الذى استطاع بريشته أن يجعل الآدمى عنقوداً ! ولكنه التلوين . ان الرسم ليهبط أحيانا إلى المحل الثانى فى بعض آثار المصورين . فكيف تريد منى

أن أعيش مع صور فنية بغير ألوان ؟ .. وبغير ألوانها الأصلية التى كد الفنـان فى تأليفها . لقد قيل ان « ليوناردو » كان يصنع أو يطبخ ألوانه بنفسـه فى معمله المغلق . لقد كان أكثر مصورى عصر النهضة يفعـلون ذلك فيما يظهر . وكان تركيب ألوانهم سراً يحفظونه كأنه تركيب اكسير الحياة ؟ وفيم العجب ؟ ان أسرار اللون فى الصورة الفنية هو سر خـلودها . انه أكسير حياتها ...؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه

أترانى أغالط نفسى ؟ أخشى أن يكون حبى للموسيقى الأوروبية مصدره أنها قبل كل شىء بناء ذهنى . ذلك أن موسيقانا الشرقية وهى قائمة على الطرب والتأثير المادى لاتسترعى منى اليوم أى التفات . الواقع أن الموسيقى الأوروبية بناء فنى ذهنى . شأنها فى ذلك شأن القصة التمثيلية . . . والهندسة المعمارية . بل شأن المذهب الفلسفى والتفكير الرياضى انى مازلت أذكر قولك لى يوما ان « عقليتى رياضية »

ربما هذا كان صحيحاً ! .. لقد كذبت عليك وعلى نفسى إذا أخبرتك انى أحل الألوان المحل الأول فى آثار المصورين . الواقع ان الذى يثير اهتمامى فى الصورة قبل كل شىء هو ما يسمونه la composition بنيانها وتركيبها . . . وما يسمونه le rythme رَويها وتنغيمها . فمثلا لوحة كلوحة « المسيح يحمل صليبه » لرفاييل ، أذكر منها كل تفاصيل تركيبها المحكم بمواضع أشخاصها وحركات أجسامهم وإيماءات رءوسهم وإشارات أيديهم وطيات ثيابهم ... كل هذه الأشياء أبصرها وقد اتسقت خطوطها واتزنت وكونت فى عالم الضوء والرؤية تركيبا جميلا منغما كأنه قصيد لا ينبو فيه لفظ عن الروى .. أما الألوان فلا أذكرها كثيراً لأن عينى لم تمتلىء بها ، امتلاء العين بالألوان فى الطبيعة والحياة والفن شرط لازم

فى التصوير . ان العقل فى فن التصوير ليس فى الرأس بقدر ما هو فى العين .. العين النهمة التى تبصر وكأنها تغترف وتلتهم .. تلك عين المصور المبدع . التصوير فن حسى أكثر مما هو فن ذهنى . الآن أدركت السر الذى طالما حيرنى أمام لوحات « روبانس » . لطالما تساءلت : ما هذه النساء الممتلئات لحما وشحما ، ذوات الأرداف المترجرجة والخدود المتوردة ، ممن نبضت بهن ريشة ذلك الفنان ؟ ولطالما تساءلت عن الغرض الذى دفع مثلا « بول سيزان » إلى تصوير طبق من التفاح .. ولطالما عجبت لمغامرات « بنفنوتو تشيلليني » المسطورة فى مذكراته المشهورة وما فيها من نهم حسى وحشى لمتع الحياة .. الحقيقة ان الفنان المصور يجب أن تكون حواسه المادية وعلى الأخص حاسة البصر متيقظة لألوان الطبيعة إلى حد النهم الوحشى . الفنان النابض بالحياة إما أن يكون متيقظ

الحاسة إلى حد الوحشـية أو متيقظ الروح إلى حد الصوفية . في المصورين كذلك طائفة من المتصوفة ، لعل خير مثـل لهم هم السابقون لعصر النهضـة قبيل القرن الرابـع عشر les primitifs ... على ان اليقظة الروحية أو الحسية في الفن ليست في رأيي وقفاً على عصر من العصور ؛ فهي ترجع أحيـانا إلى طبيعة الفنان وحده وحالات نفسه المتغيرة أحيانا . فريشـة « روبانس » التي صورت « امفتريت » زوجـة إله البحر « نبتون » كأنها امرأة تزن ثمانين كيلوجراما .. بضة .. غضة .. كتمثال من الزبد .. لاينبعث منها أي معنى غير معنى المادة الحية والشهوة الحسية .. هذه الريشة نفسها هي التي صورت « انزال المسيـح عن الصليب » على نحو رائع ... كله جمـال روحي يبعث في نفس المشاهد خشوعا ورحمة وشعوراً دينيا

عميقاً . ان الفنان هو الكائن العجيب الذى يجب أن يلخص الطبيعة كلها بمادتها وروحها فى ذاته الضئيلة المحدودة . هو ذلك الكائن الذى يعيش فى داخله الحيوان والاله جنباً إلى جنب ... ؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه :

لماذا لا تصرح بالحقيقة وتقول لى فى غير مداراة : رح أنت لا تحب الأدب !؟ يمنعك من ذلك شىء واحد : انك منذ عرفتنى لم ترنى أعنى فى حياتى بشىء آخر غير المطالعة والتأمل . ومع ذلك فها أنذا اليوم لا أحب أن أطالع ولا أن أتأمل . . .

آه يا اندريه . لماذا لم أتعلم فى صغرى الموسيقى ؟ إنى خلقت لأعيش كل حيـــاتى فى عالم الأصوات وحده . اندريه ... يقوم فى نفسى الآن شـك كبير يوخزنى . شك فى علاقتى بالأدب والفكر . أعترف

لك يا اندريه كأنه اعتراف أمام قسيس : انى لا أقرأ اليوم خلا رسائلك شيئاً . فقدت لذة القراءة . لعلى أبالغ فى الجملة . لكنها الحقيقة فى قسط كبير . كاشفنى بحقيقة أمرى ولا تحاول مجاملتى أو مداراتى وقد كشفت لك عن شكوكى . إنى أصغى إلى الموسيقى لا للفائدة ولا للاطلاع ولا حتى للحاجة الفكرية أو السمو الروحى . انما للحياة نفسها إنى أعيش بين أنغامها كما تعيش النحلة بين ألوان الازهار . إن الجمال الذى ينبعث من تناسقها الفنى تدركه فى نفسى أداة أدق من الفكر الواعى . لماذا لا أقرأ كذلك . ان القراءة عندى جهد ومشقة ووعى ويقظة . ولا شىء غير ذلك . إنى أوجه إليك هذا السؤال ولن أنفك أسألك الجواب : هل حقيقة بينك وبين ضميرك تعتقد أنى سأنتج شيئاً فى شؤون الفكر والأدب ؟ ... ؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه :

ماذا تريد منى ؟ نعم إنى أطلب إليك وأريد منك لأنك تستطيع أن تعطينى . يدهشنى فى كل رسائلك شىء واحد : انك تريد أن أكتب إليك . ولعله كرم خلق منك . أما أنا فلست أكتم عنك . لو أنى فى مكانك وأنت فى مكانى لما ترددت فى قطع الصلة بهذا الرفيق الناضب المفلس . ما الذى تستبقينى من أجله ؟ هذا دائماً مالست أعرفه : تذكرنى هذه المناسبة بفكرة خطرت لى منذ زمن وهى أن أكرس لك خطابا طويلا أحدثك فيه عن الصداقة . فلقد

هالني أن أصحو في فترة من هذا السبات الذهني فلا أجد حولي هاهنا صديقاً ولا رفيقاً . ولعل الذنب ذنبي . فقد لحظت من حالتي العصبية ومن ضيق صدري تعذر جلوسي إلى الرفاق ؛ كما أني لحظت هدوء نفسي وانتظام تنفسي واتساع صدري كلما عدت إلى حظيرة الوحدة المطلقة . في أحضان الوحدة وحدها أتنفس الصعداء في لذة وراحة . أهو مرض ؟ أهو توحش ؟ أهو حال عارض طارئ ؟ لست أدري حتى الآن . ان مجرد الاختلاط العادي والاجتماع في ذاته حتى مع من يروقني مجالسه أمر يشق على نفسي ويعد في نظري من الأهوال . تستطيع أن تقول اني اليوم في فترة من حياتي وقفت فيها حركة القلب والعقل معنويا . إني أحس نفسي الآن تهبط إلى مجرد الآلة . إني غير جدير بأي عمل يحتاج فيه إلى العقل أو إلى القلب . الحب ! يخيل إليّ أنه التفاحة

التى لم أذق حلوها قط ولا أود قط أن أعصى الله من أجلها . وماذا تريد من شخص لا يعرف حتى الصداقة ! العقل والتفكير ! آه .. ذهب ذلك الفتى الذى كان يقرأ الكتاب ساعة ويسبح فى التأمل والاستنباط ساعات . وماذا تريد من شخص لا يقوى على فتح جريدة ! كل ما فى الانسان من آلة وآلى هو أنا الآن . أنا اليوم شىء أقل بكثير من إنسان . ومع ذلك يا عزيزى أندريه تشاء بى سخرية الله أو الشيطان أن أسمع وصفاً عجيباً لى جرى به لسان رجل عجيب .

كان ذلك فى إحدى الزيارات العائلية ساقونى إليها مرغماً . فجلست لحظة ثم هممت بالانصراف . وإذا رجل يدخل فيجلس . وإذا الحاضرون يقبلون عليه طالبين إليه أن يقرأ أكفهم . وقيل لى انه رجل من ذوى اليسار ومن معارف أصحاب الدار ، ولكنه ولع بعلم الكف منذ صغره وأنفق عمره فى الاحاطة

به والتعمق فيـــه حتى حذقه . فلم يخطىء مرة فى تنجيمه . وفرغ الرجل من النظر فى أكف الحاضرين ودعانى أحدهم أن أمد كفى إليه ففعلت . فنظر الرجل فيهـا ساعة ثم رفع عينيه إلى وجهى . ولعله ما رأى فيه غير ابتسامة المتشكك فى علم رجل غير ذى منظر ولا هيئة ينمان عن ذكاء . لقد كان رجلا بديناً أصلع ضعيف البصر ، ترتسم على وجهه السذاجة إن لم أقل الغباء . لقدمثل فى رأسى صورة للعمدة الفلاح الجاهل البسيط . ولـكنه عنـد ما تـكلم قارئا كفى فاه بألفاظ أدهشتنى: ألفاظ لاتجرى إلا على ألسنة أهل العلم والفطنة والثقافة . وإليك نص ماقال : « انت روحانى طبيعتك روحانية » . وهنا طلبت اليه تفسير هذه الـكلمات فقد عجبت لنطق مثله بمثلها ثم نعتى بمدلولها وهو لا يعرف من أمرى شيئا . ولم أتـكلم طول الوقت إلا بالتافه من كلمات

المجاملة . وكنت دائما أصغى الى الآخرين . ولعلى كنت أصغر الحاضرين شأنا وأقربهم إلى هيئة الحمق والبله) فأجاب : « لاتسألنى تفسيرا . لاتسألنى فى غير ما أرى : أمامك الشمس . . . الشمس لاترى فى كل كف ولا فى كل طالع . . . الشمس أراها فى نجم حضرتك ! » . . ولكن حضرتى ما كان يعنيه بالضرورة غير مسألة « أكل عيشه » وكسب قوته . فأسرعت قائلا : « وماذا غير ذلك ؟ » فمضى يقول : « ثم أنك من حيث الثروة والسعادة قنوع . سعادتك فى القناعة . والغنى عندك قناعة . يعنى لن يكون غناك فى المال . » ثم قال : « وانت تحب العزلة . انت مثل رجل منقطع . . . » هنا شعرت برجفة . تلك ياأندريه هى الحقيقة الوحيدة التى اعتقدت أن الرجل قد فاه بها . ولا تستطيع أن تتصور مقدار دهشتى عند ما قال ذلك خصوصا فى وقت كنت

اكثر فيه من تأمل حالى المزعجة . ونظر الرجل أيضا ثم قال شيئا غمني وغم أهلى على الخصوص . فقد قال أفاده الله : « فقط . . فقط . . . لست أرى طريقك فى مناصب رسمية . » فلم أرد فهم مراده . بادىء الأمر . وخالجنى قلق وكدر فأنا لم أزل مستبشراً بوظيفتى القضائية التى كادت تتم اجراآت تعيينى فيها . . . فقلت له : « وما معنى طالعى اذن اذا كنت لاترى لى طريقا فى وظائف الـ . . . » فقاطعنى بعنف : « أنا أرى فقط ولا أفسر » . . لقد أوردت لك يا أندريه . نص ألفاظ الرجل على وجه التقريب . فما رأيك ؟ إذا أردت رأيي أنا فاعلم انى ضحكت فى نفسى كثيرا لقوله إنى « روحانى » ! من العجيب أن يجىء قوله هذا فى وقت أوقن فيه بأنى « مادى » المادية كلها بل « آلى » الآلية كلها . لقد كدت أصيح فى

وجه الرجل قائلا : أيها المنجم ، انى أوثر أن أمسخ قردا
على أن تصدق فى « روحانيتك » هـذه . ما أضاعنى
إلا هذه الروحانية . أما « الشـمس » أيها المنجم فانى
أبيعها لمن يشتريها من الحاضرين بمبلغ مائة وعشرين
قرشا ثمن تذاكر دخول كازينو سان ستفانو لحضور
« كونسـيرات » الخواجة بونومى ! « القناعـة » !
سأعيش بالقناعة طـول حيـاتى ؟ يا للبؤس ! لماذا ؟
لأن القناعة تاج دائم ؟ ! لا يا سـيدى المنجم .
انى مستعد أيضا لعرض هـذا التاج للبيع بالمزاد .
سأبيعه بالبخس كما بيعت تيجان آل رومانوف
والخليفة العثمانى . نحن نعيش الآن عصرا تحول فيه
التيجان الى ورق من البنكنوت ! إن هـذا العالم
بالكف الذى لم يخطىء مرة ، قد أخطأ هـذه المرة ،
حتى يحق له أن يقول انه أخطأ مرة . فالاسـتثناء
يسـبغ أحيانا على الأخبار رداء الصـدق والحقيقة .

آه يا اندريه ! انى فى حاجة إلى أن يدق القلب دقتين أو ثلاثاً ، ثم يقف . . لدينا ساعة كبيرة فى ردهة الطابق الأسفل . جئت من أوروبا فوجدتها . وقيل لى إنها مشتراة فى مزاد عام ، منذ ثلاثة أعوام . ساعة سليمة دقيقة تسير على خير ماتكون الدقة والضبط . . . ولم تعرف قط يوما الوقوف ولا التأخير وإذا بها ذات يوم قد وقفت فجأة . فدهش لذلك أهل البيت . وهاجوا وماجوا . وجعل كل يقترح أمراً لأصلاحها . فحاولت أنا اصلاحها فلم تصلح . وسمع والدى بأمرها فنزل من حجرته اليها يعالجها باللين فلم تصلح ، فطلب مطرقة وجعل يدق بعض مافى هيكلها من مسامير ويفك بعض مافى جوفها من تروس . فلم يظفر بطائل . فتركها آخر الأمر وتركناها يائسين . واذا بها ذات ليلة تدق فى جوف الليل من تلقاء نفسها والكل نيام ، دقتين أو

ثلاثاً . . في ذلك السكون التام . . ومنذ تلك اللحظة
سارت . ولا يدرى غير الله ما أوقفها وما سيرها !
ترى بعد موت طويل يستطيع القلب أن يدق
دقتين أو ثلاثاً ، يعقبها البعث والحياة ؟ ! . . ؟

الاسكندرية فى . .

عزيزى اندريه

مات « بونومى » ! مات « إدجار بونومى » ! الأحد الماضى فقط . منذ ثلاثة أيام رأيته فى كازينو سان استفانو يقود « أندانت » السانفونية الثانية و « ألليجرو » السانفونية الأولى « لجوستاف ماهلر » وال Antiche danza « لرسبيجى » وكونسرتو البيانو والأوركستر « لأدوار جريج » . . . فقط أمس الأول سمعت صوتها فى طرقات الكازينو بعد « بروفات » الأحد القادم !

وفقط أمس ظهرت على جدران رمل الاسكندرية

الاعلانات المعتادة لأسماء القطع التى ستعزف فى الحفلة المقبلة ، وعلى رأسها La Rédemption لسيزار فرانك . إدارة الكازينو جاهلة ما يخبئه عزرائيل للمايسترو المسكين ! فهى ما زالت كعادتها جادة فى إصدار الاعلانات وتوزيعها متوجة بالعبارة المألوفة : « الكونسير سانفونيك : رقم ١٤ تحت قيادة المايسترو ادجار بونومى » .

إلى رحمة الله يا بونومى !

حتى أنت ! الوحيد الذى لنا فى مصر !

إن موت هذا الرجل نكبة عندى . ومهما يكن من أمره وأمر فنه ، فقد كان لى فيه العزاء والسلوى فى هذا البلد الفقير إلى الفن . قل إن الله يريد حرمانى كل مصدر سعادة روحية ، حتى انقلب فى النهاية بهيما يرعى أرض مصر الخصيبة !

لا بأس . فلنرجع إلى الجراموفون الآلى .

ولكن . . . رحمة الله عليك يابونومى بمقدار ما أسعدتنى فى لحظات . . .

*
* *

اندريه ، هذا ثالث خطاب إليك من سلسلة خطابات مكتوبة ولا شك تحت تأثير حالة شبه واحدة . وأخشى أن تفسر هذه الحالة بما اعتدت أن تفسرها به ، قائلا : « أوه ، إنى أفهم حالته جيداً من خلال سطوره ! » . الواقع أنك قدير على استشفاف ما بين سطورى ؛ غير أنى لا أريد أن تفهم أكثر من انى الآن فى حالة كآبة عارضة . وهل لا تعطينى حتى حق الوقوع فى الكآبة من حين إلى حين ؟ لكن ثق أنها حالة نفسية داخلية لا أثر لها فى تصرفاتى الخارجية ولا صدى لها فى أعمالى الظاهرة ولا تظهر حتى لأعين غيرك من الناس . ومع ذلك فانى قد محوتها أو سأمحوها من

أمام عينيك أنت أيضاً ؛ لأني أعلم أنك لا تحبني مكتئباً . نعم ، يجب عليّ أن أخاطبك ضاحكا دائما ، وإلا حق لك أن تصيح بي : « اضحك أيها البلياتشو ! » كما حق للجمهور أن يصيح ببلياتشو « ليون كافاللو » في (الأوبرا) المشهورة !

نعم ، لماذا أطلعك على الأركان السوداء من حياتي ؟ أنت الذي لا يأخذ حياتي على سبيل الجد . فلألبسن لك « الطرطور » ولأدهنن لك الوجه بالدقيق ؛ ولتدق الطبول ؛ ولينفخ في البوق ؛ وليرفع الستار عن الفصل المضحك :

اسمع ياسيدي ، أيام أن كان صديقك الشرقي يتناول الغداء في المطعم الالزاسي . لقد زعم ان « الساقية » الرشيقة خادم المحل كانت تخالسه النظر . الواقع انها منذ وقع بصرها عليه أول مرة وهي لاتفتأ ترمقه كلما مرت به حاملة طبق الكرنب المعمر بسجق

« فرانكفور » أو « نصف بيرة » أو « واحد » جبن « كامبير » . لقد عجبت حقا لأمر هذه الجميلة التى سخت على بكل هذا العطف ، إذ خصتنى بالتفاتها دون أولئك العديدين الذين لا يأتون إلى هذا المكان إلا من أجلها . أجل ياسيد أندريه ، لم تكن أنت وحدك الذى كان يصنع ذلك . لقد كانت هنالك عصبة شبان يظهر انهم من التروبج ، كانوا يختلفون إلى ذلك المطعم لرؤية (القمر) فى نصف النهار ! أما عن فرح (توفيق الحكيم) بهذا العطف الخاص فحدّث ولا حرج . لقد شمخ وانتفخ وقال لنفسه : (لعل ميزة خفية أو ظاهرة فىّ هى التى استلفتت نظر الفتاة !) . وأراد يوماً أن يبتسم لها ، ولكنه نظر قبل ذلك إلى وجهه فى المرآة ، وإذا هو فجأة يدرك سر نظرات الجميلة إليه . ياخيبة الأمل ! وتذكر فى تلك اللحظة ان نظراتها كانت موجهة فى حقيقة

الأمر إلى رأسه .. إلى شـعره .. إلى ذلك الشـعر المنقوش (أرتستيك) ومن تحته ذلك الوجه الغريب بعينيه اللتين تشبهان أعين أهل الأساطير الدينيـة المصورة في الفسيفساء البيزنطية ، وشفتيه الغليظتين الافريقيتين كأنهما شفتا ساحر زنجى ... عند ذاك تذكر أيضا ماقالته فيه خادم الأسرة التى نزل عندها بحى (فوجيرار) أول عهـده بباريس . لقد دخلت عليه الخـادم في الصـباح تحمل صينية الفطور . فوقع بصرها عليه في السرير ، لايبـدو منه إلا رأس يطل من اللحاف الناصع كأنه رأس يوحنـا المعمدان على صينية الفضـة . ولكن حاشا لله أن يكون هذا معمدانا ! صاحب مثل هذا الرأس لا يمكن أن يكون من الآدميين ! ذلك ولا ريب ماجال بخاطر الخادم وهى تنظر إلى شـعرى الذى هب قائمـا إلى ما فوق مسند السرير في شكل دائرة . كأنه هالة من (الهباب)

الأسود على حافة الوسادة البيضاء : أما الوجه فوق الوسادة وتحت الهالة فلم تره لحسن الحظ . ومضت الأيام . وإذا صاحبة البيت تقول لى ذات يوم باسمة وقد زالت بيننا الكلفة : أتدرى ما حدث فى صباحك الأول لدينا ؟ لقد جاءتنى الخادم تقول مرتاعة : (أتدرين ياسيدتى من حل بدارنا ؟ . . فسألتها : من ؟ فأجابت : C'est Le Ciable انه الشيطان ! . .)

ولعلها صدقت . ولست أدرى ماذكرنى الساعة بهذه الحادثة التى كدت أنساها . ولم يذكرنى بها حتى خطابك الممتع الذى حدثتنى فيه عن ذلك القسيس الذى ظن (توفيق الحكيم بملابسه السوداء) الشيطان أو المسيح الدجال . إذن ماجاء بخطابك لم يكن محض خرافة ولا تأليف ! من يدرى . لعلى

أخذت عن إبليس صورته وهيئته . لكن ... هل تظن أن لى أيضاً قلبه ؟ لا أظن . وبعد ... فلتسكت الطبول ، وليغسل (البلياتشو) وجهه ، فقد انتهى الفصل المضحك ! ... ؟

الاسكندرية في . . .

عزيزي اندريه :

هل حقا أنت تفهمني ؟ وهل تقدر ما أنا فيه ؟ انها دائما حالة القلق والبحث والتنقيب عن الأسلوب . لكن انتظر . ماذا أريد أن أقول ؟ هل لي الحق أن أتكلم في الأدب ؟ مع ذلك أتقطع شكا وقلقاً وبحثاً يا صديقي اندريه ، لا عن اسلوب الأدب وحده ، بل عن اسلوب حياتي . . . ؟

الاسكندرية في ...

•

عزيزي اندريه :

ولنعد إلى ماجاء في رسـالتيك الأخيرتين عن غرقك في بحر الـكتب والمطالعات وخروجك مصابا بحمى الشـك والقلق . ينبغي ان أبادر فأقول لك ان هذا القلق مرض دوري لـكل رجل فـكر . أين كنت أنت أيام إصابتي بهذا المرض الاصابة الأولى ؟ لقد حدث لي بالضبط كل ماوصفت . في ذلك الوقت كنت انت في مصـنعك بعيـداً عن المنطقة الجدية العميقة من نفسي . وكنت أنا في حجرتي قريباً من مسكن المأسوف عليه إيفان . لقد كان العامان

الأخيران من عهد باريس رازحين تحت أثقال هذا المرض الموهن . لقد فتحت أمامى المطالعات دنياوات لا قبل لى بها وعوالم لا حدود لها . وقد حدث ذلك فجأة أو على الأقل فى سرعة لم يتحملها ذهنى . فصار مثلى مثل ذبابة أطلقت فى اجواز الفضاء الهائل وهى التى ماهامت إلا فى جو الحجرة الضيقة وما عرفت النور إلا من خلال النافذة الزجاجية المغلقة . على أن هنالك فرقا بينى وبينك لا يجوز أن تنساه . فرق جعل مرضى أثقل وطأة وأشد فتكا . ذلك أنى كنت اعتبر شؤون الأدب والفكر حرفة وغاية . وكنت أدع المتصلين بى يفهمون عنى ذلك . وكنت أعلن لا فقط حبى لشؤون الفكر والأدب والفن بل اشتغالى الكلى بها . أما انت فقد كنت تعمل عملا حقيقيا ترتزق منه وتأخذه على سبيل الجد وما كانت المطالعات عندك إلا هواية . وما كان

الاغراق فى التأمل والتفكير والخيال إلا موضوع سخريتك ، على الأقل فى أول عهدك . إلى أن رضيت آخر الأمر أن تتفضل على هذه الأمور بنظرة تسامح . ذلك حالك وهو كما ترى ليس خطيرا إلى حد كبير . أما أنا فقد تفاقم خطبى . لقد أضعت وقتى كله فى باريس منحنيا على مكتب الحجرة رقم ٤٨ بشارع بلبور . اقرأ وأقرأ حتى قرأت كل شىء . لم أترك شيئا فى تاريخ النشاط الذهنى لم أطلع عليه . لقد غرقت فى آداب الأمم كلها وفلسفاتها وفنونها . لم أكن أسمح لنفسى بأن أجهل فرعا من فروع المعرفة لأنى كنت أعتقد أن الأديب فى فى عصرنا الحاضر يجب أن يكون « موسوعيا » لذلك بذلت جهدى فى أن أحيط بأبرز ما أنتجت العبقرية الانسانية . حتى العلوم ، أردت أن ألم الماما بأهم نتائجها . ففى الهندسة حاولت فهم هندسة نيومان

المعارضة لهندسة اقليدوس التقليدية . والرياضة أردت فهم مراميها العليا فى مؤلفات الرياضى هنرى بونكاريه. والطبيعة والفلك بدأتهما باسحق نيوتن حتى بلغت نظرية اينشتين التى قرأت فيها وحدها نحو خمسة كتب . وفى علم الحياة قرأت بعض كتب داروين ولا مارك . . . وفى علوم النفس بدأت بكتب جورج توماس وارمان ريبو وانتهيت إلى أكثر ما كتب عن نظريات فرويد. ولفتت نظرى العلوم التيوزوفية فقرأت كتب « آن بيزانت وادوار شوريه ورودولف ستينر » وخرجت منها الى العلوم الروحية فقرأت ابحاث اوليفر لودج ووليام باريت وفلاماريون . حتى علوم الكهرباء حاولت فهم ما أستطيع فهمه من نظريات فاراداى وتومسون وبيران ... الخ ... أما قراءاتى فى القصص التمثيلى فهى أعجب شىء فعلته . لقد قرأت كما أخبرتك ذات

مرة « المكتبة المسرحية » La Librairie Théâtrale
برمتها . فأنا كنت أراساها من مصر قبل تزوجى
إلى فرنسا . واعرف عنوانها فى الجران بولفار .
وكانت هى أول حانوت دخلته إذ دخلت باريس .
فجعلت أختلف إليها أياما طويلة أطالع صفوف كتبها
صفا صفا . وانطلق آخر النهار بما استطيع شراءه
مداراة لصاحب الحانوت . واعتاد الكتبى رؤيتى
كل يوم على هذا الحال . . . إلى أن نظر ذات يوم
حوله فلم يجدنى . فسأل فى ذلك أحد عماله مستغربا ..
ثم حانت منه التفاتة إلى أعلى المحل فأبصرنى فى قمة
السلم لاصقاً بالسقف ألتهم الكتب التى فى الصف
العلوى الأخير .. أجل يااندريه فعلت هذا وبعد ذلك
كله انكببت اكتب واكتب مخطوطات ...
كان مصيرها كلها التمزيق ، ان ما جعلتك تقرؤه
منها يا اندريه لا يوازى جزءاً من عشرة أجزاء مما

أخفيته عنك وانتهيت الى تمزيقه قبل أن تطلع عليه عين . ولعل ما قرأته انت هو أنكب وأقبح ماسودت به وجه ورق . انها سهول من الصحارى والرمال تصور لنا سرابا بعيداً لن نبلغه أبداً . سهول من الأساليب المختلفة كلها « السهل الممتنع » . يحسب القارىء انه محيط بأسرارها واضع اليد على مفاتيحها مستطيع أن يبلغ مبلغها لو أمعن فى السير والبحث والكتابة . فيسير ويسير متوهما فى كل خطوة انه يبصر « اسلوبه الخاص » المنشود يلمع فوق تلك السهول . لكنه ما يبصر غير سراب . ولشد ماتوهمنا ان الأسلوب الخاص معناه التجديد وان التجديد معناه الاغراب . وبهذا الوهم كتبت حماقات كنت أحسبها شعراً . ونزعت الى الاغراب خشية التقليد فاذا بى أقع دون أن اشعر فى محاكاة « الدادايزم » و « السورريالزم » و « الكوبزم »

الأدبى . وإذا ما كنت أظنه استيحاء مبتكراً فى
وضع الشعر على طريقة « بيكاسو » و « ماتيس »
فى التصوير الحديث ، ليس إلا صدى باهتاً لطريقة
(جان كوكتو) ونزعات (مارسيل شووب)
واتجاهات (ماكس جاكوب) . وضعت فى هذا
الأسلوب قطعاً كثيرة أهمها : (النفس) و (القبلة
و (ابو الهول) الخ ... مزقتها طبعاً قبل أن أفكر
فى اطلاعك عليها ... وغير ذلك كم من الفصول
التمثيلية كتبت ومزقت ! لقد كنت أظل أكتب
أحيانا تسع أو عشر ساعات فى اليوم بلا انقطاع دون
أن اذكر الجوع أو افطن الى أوقات الطعام . ولقد
انفقت شهوراً فى وضع قصة تمثيلية قرأتها لصديقى
مسيو هاب وقد كان قبل الحرب ممثلا مهما كما تعلم
فى أشهر مسارح باريس .. ! قرأناها معاً فى يوم
بأكمله بحديقة اللوكسمبورج ، وكان مصيرها

« الالقاء » فى أول مرحاض عام بشارع مدسيس . ذلك انى لم أستطع صبراً على الانتظار حتى أعود إلى مسكنى فألقيها فى سلة المطبخ . ولكنى لم أقنط مع كل ذلك . لقد استمرت الحمى بعدئذ سنتين كاملتين قاسيت فيهما كثيراً . لقد كان القلق مستحوذاً علىّ إلى درجة مروعة . لأنى كنت أظن فى الأدب مستقبلى . لقد كنت أضن على نفسى المتعبة بشىء من الراحة والاستجمام . لقد دعانى زملائى المفلحون من دكاترة الحقوق إلى السفر معهم فى الصيف إلى شاطىء « أوستند » أو إلى جبال (الفوج) أو إلى قرية على بحيرات سويسرا استكشفوها . وكانوا يذهبون لنزهة الصيف زرافات ، يضحكون ويلهون وكلهم فرح بالحياة ، مدرك لقيمة الشباب . أما أنا ففى باريس دائما ، قد انحنى ظهرى على مكتبى بشارع بلبور ، ابحث وأبحث عن

ذلك السراب الذى يدعى «الأسلوب» . حتى الحب .
حتى (فينوس) ضحيتهـا من أجل (أپولون) . لقد
كنت أصـالح (إيما) يوما لأخاصمها شهراً . ولقد
كانت تشاء الظروف ان أقابلها فى المصعد وجهاً لوجه
وتسنح فرصـة الصـفاء واللقـاء . ولـكنى أقول فى
نفسى : علام الصلح وأنا لم أزل مع الفن فى خصـام !
وأعود الى أوراقى انكب عليهـا انكبـابا غير حافل
بغضب (إلهة الحب) معفراً جبينى عند أقدام (إله
الشعر والفن) . وإذا بهذا الاله القاسى يهزأ فى النهاية
بى وكدى ويبسم لى قائلا بلسان مسيو هاب :
(نعم . نعم .. لديك موهبة الحوار . . لكن ...)
فيلقى بهذه الكلمة الصغيرة جرثومة الشك فى أعماق
نفسى . فانهال على عملى تمزيقـا لأبدأ عمـلا آخر فى
كد ونشـاط قاتلين . ويأتى الشـتاء دون أن اشـعر
ويسافر أصـدقائى إلى التمتـع بالشمس فى (نيس)

و (جراس) . وأنا أنا على عهدى أرفض الذهاب معهم لألقى بنفسى من جديد فى اتون تلك الحمى المستعرة . ولا ا كاد افيق إلا على صوت غناء (إيما) يصعد إلىّ من نافذتها بالطابق السفلى . ولكن ... أين لى راحة الضمير ، أين لى ذلك الاطمئنان إلى آخرة طريقى الوعر المغلف بالضباب ، أين لى ثقتى بنفسى وعملى ، أين لى الأمل ببعض النجاح ، أين لى القليل من الرجاء يلطف من ذلك القلق الذى يحرمنى التمتع بالحياة والشباب وباريس . ما كان شىء يؤلمنى ويطعن قلبى مثل سماع تلك الأغنية الباريسية الشعبية التى مطلعها :

Si Vous voulez l'amour n'attandez pas huit jours

(إذا كنت تريد الغرام فلا تنتظر ثمانية ايام !)

وأنا لا انتظر ثمانية ايام فقط . انما انتظر الأبد . انتظر السراب الذى لن يأتى . انتظر الوصول إلى مفتاح حياتى وسر غدى . بل انتظر على الأقل

علامة واحدة تدلني على ان ما انفق من وقت وجهد وألم في البحث لم يضع عبثا …

لقد كان مسيو هاب يعيب عليّ شيئا واحداً : كتابتي بالفرنسية مباشرة . ولكن ذلك لم يفت في عضدي ووضعني هذا القول وامثاله في جحيم المعركة من جديد . . . فاندفعت أعمل سنة كاملة أخرى كتبت في نهايتها صفحات تقرب من الخمسمائة لم اطلعك عليها . ولكن بعض الأصدقاء حملوها إلى ناقد فرنسي معروف ؛ لم يرني ولم يعرفني ، يستطيع ان يصدقني الرأى ، فأبدى رأيه في خطاب طويل ، فيه تحليل دقيق ؛ ختمه بالعبارة المعهودة : افكار كثيرة وموهبة في الحوار … لكن . . .

beaucoup d'idées, le don du dialogue, mais . . .

آه لهذه ال (mais) ! .. آه لهذه ال (لكن) ! فتلتني هذه ال (mais) ! لطالما مزقت وقتي وجهدي …

وقلبي !. . وشعرب انى سجين هذه ال mais ا أفظـع مما سجن بهاملك روما فى قصة (ادمون روستان) !.. ومزقت تلك الصفحات ايضاً . ان اعتراضات الجميع لاتتغير : (لماذا تحاول ان تتكلف الأسلوب تكلفاً ؟! انه لايفوح من اسلوبك الفرنسى أى عطر شخصى أخاذ .. انما هى عبارات محفوظة فى كتب البلاغة تحسب انها اسلوب رائع !) ... حقا ... ان احتفالى بأمر الأسلوب قد اوقعنى فى التقليد ... آه لكلمة اسلوب ، ولكلمة formule . . ! لقد بدأت أبصر وقتئذ . . لقد تبين لى بعد طول الجرى والجهد ان الأسلوب احيانا حجة الكاتب الذى لايجد مايقول . ان الذى عنده ما يقول للناس يخرج بكل بساطة مالديه من كنوز . . . لا يحفل بأسلوب التقديم ويتكلف الوضع المسرحى فى الاعطاء إلا ذلك الذى يعطى شيئا تافهاً . ما الأسلوب إلا تلك الآلة

الصناعية التي نتوســـــل بها للوصول إلى الحقيقة .
ولـكن ما أروع الحقيقة لو تفجرت وحدها من أعماق القلب الصادق فى كلمات بسيطة .! لهذا كان الأسلوب أحيـانا كل أدب أولئك الذين لا يحملون فى جعبتهم ماينفع النـاس .. ولقد لاحظت انت يا اندريه بحق ان كتابا مثل كتاب (السحر الأسود) لبول موران هو مجرد أسلوب . وان كتابا مثل كتـاب « قافلة بغير إبل » لرولان دورجليس ليس سوى أسلوب .
هذا العصر الآلى يلجأ أحيانا إلى آلة الأسلوب كلما أعوزته روح الحقائق الانسانية التى أبرزها الأدب القديم . الأسلوب هو المظهر الخـادع الذى يخفى به كتـاب اليوم جهلهم المطبق بروح الشـعوب التى يزعمون النفوذ إلى صميمها فى مدى رحلة شهرين بالقطار والباخرة ! انهم يستعيضون بفن (الديكور) الـكلامى والريبورتاج السريع واللون المحلى السطحى

عن الحقائق التى لا يحسها إلا أهلها . ان ما يطلبه الغرب وما يطلبه الشرق أشياء غير ذلك . اقرأ مقالات لويس برتران عن اسبانيا ... انه قد أدرك كل هذا . فهو يتهم كتاب فرنسا المعاصرين بأنهم لاهتمامهم باللون السطحى وحده قضوا على اسبانيا أن تظل مجهولة الى الأبد لعين فرنسا ، وأنا أزيد عليه ان كتاب اسبانيا أيضاً من امثال بلاسكو ايبانيز ساهموا فى هذا التضليل . لقد قيل ان هذا الكاتب الاسبانى المشهور كان ذا وجهين : وجه يتجه إلى وطنه ينشىء له أعمالا هى وحدها ذات القيمة الحقيقية . ووجه يتجه إلى أوروبا فينشىء لها أعمالا دولية . وأوروبا للأسف لا تعرف إلا هذا الجانب المصنوع لها صنعاً . إذا كان هذا قد قيل عن اسبانيا فماذا يقال عن مصر والشرق ؟ ان مهمة كاتب مصرى أو شرقى لأشق وأعسر وأكبر من ذلك كله ! ولكن لا بد من جهادنا

حتى فى بلادنا أيضاً . فان الأسلوب السليم لم يزل فى عرفنا مرادف اللغة المتصنعة المنمقة . وقليل من فطن الى ان الأسلوب هو روح وشخصية . لقد كان مسيو « هاب » يدعونى إلى ترك الكتابة الفرنسية لالأنى لا أحسنها . على النقيض . لأنه رآنى أتكلفها وأنمقها واستخدم تراكيب موضوعة وبلاغة محفوظة مما حبس روحى وسجن شخصيتى فى إغلال من الكذب والتصنع . لقد أصاب الحقيقة . لا يخلق الأسلوب الحق إلا الكاتب الصادق فى شعوره وتفكيره إلى حد ينسيه أنه ينشىء أسلوباً . البلاغة الحقيقية هى الفكرة النبيلة فى الثوب البسيط . هى التواضع فى الزى والتسامى فى الفكر . كذلك كان أسلوب الانبياء فى حياتهم : انظر إلى محمد وعيسى على الخصوص : بساطة فى الملبس ، وتواضع فى المظهر

وسمو فى الشعور والتفكير . . .

انى يااندريه مهتم كل الاهتمام بالتفاتك الحاضر إلى الأدب . وان بحثك وشكك وقلقك لمما يدنيك الى نفسى . فمرحبا بك . امض فيما انت فيه. ولا تخش هذا « المرض الضرورى » . بل يجب ان لاتشفى منه سريعا . حبذا لو اتصلت بك وبما تقرأ أكثر من ذلك . ولو أنى اتبع اليوم « نظاما صحيا » régime sec أى عدم المطالعة فى الادب اطلاقا . قراءتى الآن قليلة . وفى أشياء أخرى غير الادب ، مثل تقارير عصبة الامم ، وسياسة أوروبا الاقتصادية بعد الحرب . . . الخ

حاشية — أصبح الامل ضئيلا فى امر تعيينى النهائى بالقضاء المختلط . فانى بعد أن ألحقت بنيابة

الاسكندرية تحت التمرين توطئة للتعيين . ولبثت أعمل تلك الشهور الطوال ، عينوا فى كل وظيفة تخلو أشخاصا غيرى وتركونى فى القاع كثمالة الكأس ...؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه

أحقيقة ان امرأة تستطيع أن تميل إلىّ . . ؟ آه أيها الماكر . . . لقد كشفت حيلتك . تريد أن توهمنى ان « الجميلة » ساقية المطعم الالزاسى تحمل لى أجمل الذكرى ! كلا . انك تعاملنى دائما كما يعامل طبيب مريضا . وهذه الفكرة وحدها كفيلة أن تجعلنى لا أصدق ماتقول . تذكر لى أنك دعوتها إلى العشاء . وتخشى غضبى . لا ياسيدى . إنى لم أغضب . على النقيض . لقد سرنى ذلك . انها كانت عندى شيئا جميلا حقا . شىء جميل لم أجرؤ

على مسه بأناملى ، حتى لا ينهار أملى فيه . ليت الأمر اقتصر على الحب ياأندريه . كل شىء ينهار بلمسة من يدى ... كأنما أبنى الآمال من الرمال . لقد مضى أكثر من عام وأنا فى الاسكندرية . لقد تغيرت كثيراً وتنازلت عن أغلب أفكارى وآمالى . لقد أرغمتنى الحياة على المصانعة فى أمور كثيرة : لقد نبذت فكرة القضاء المختلط واتجهت شطر القضاء الأهلى .. إنى الآن فى انتظار أى قضاء ؟ ! ان الحياة لتقهرنى قهراً على قبول مالا أريد ... إنى منذ التحاقى بالنيابة المختلطة تلك الشهور ، وأنا أختلط بطوائف من الموظفين وبألوان من الناس ما كنت أحسب انى استطيع الحياة بينهم يوما . وحتى مطالعاتى الآن اكثرها — عدا مايتعلق منها بعملى الرسمى — يجنح إلى الدراسات الجافة والمسائل الاقتصادية . ومع ذلك فانى اشعر دائما ان فى نفسى منطقة رفيعة منيعة

لايصل اليها أحد . فانى ما أكاد أختم أعمال النهار ... حتى آوى الى حجرتى أصغى الى اسطوانة « عصفور النار » لسترافنسكى . لقد أخطأت يا اندريه كما أخطأت أنا من قبل إذ نظن حياة العمل والواقع قديرة على انتزاع حب الجمال من أنفسنا : وا أسفاه ! ان كل ما كسبته نفسى من اتصالها بالفن الحق كان حقيقيا خالصاً لازيف فيه .

إنى أعيش فى الظاهر كما يعيش الناس فى هذه البلاد . أما فى الباطن فما زالت لى آلهتى وعقائدى ومثلى العليا . كل آلامى مرجعها هذا التناقض بين حياتى الظاهرة وحياتى الباطنة .

إنى أصر على مراسلتك هذا الاصرار لأنك الوحيد الذى يعمر هذه الحياة الثانية . انها صحراء أصيح فى أرجائها وأنت وحدك الذى يسمع رجع الصدى . آه انك لن تقدر آلام من يعيش فى غير

عصره . فأنت أوروبى يعيش فى أوروبا . انك لم ترزأ بعد بالحياة بين ناس لا يتصل إحساسهم الفنى باحساسك لقد كان مجرد حضورى فى قاعة كونسير « بلييل » أو « كولون » يجعل بينى وبين كل فرد حاضر فرنسى أو روسى أو ألمانى صلة تكاد تكون صلة المواطن بالمواطن . لقد كانت أيدينا تنطلق بالتصفيق لدى دخول موسيقى مثل « فورتفانجلر » فى شبه حركة واحدة . كأن مراكز الاحساس فينا جميعاً متصلة بسلك واحد . لقد كنا فى وطن ثقافى واحد . لقد كانت تظلنا أنا والفرنسى والروسى والألمانى والمجرى والانجليزى سماء واحدة هى سماء الحضارة فى هذا القرن . من أجل ذلك كنت اطالع كل ما كتب عن عصبة الأمم وكلى أمل ، وما قيل عن « الدولية » واتجاهاتها الانسانية وكلى رجاء . ثم إنى فوق ذلك وبعد ذلك كنت أعيش . أعيش الحياتين . بل حياة

واحدة ، إذ لم تكن بى حاجة إلى حياة ظاهرة وحياة باطنة . قد تسألنى أليس فى مصر طبقة من المستنيرين ؟ نعم فى مصر طبقة مستنيرة فيها كثيرون عاشوا فى اوروبا وعرفوا الثقافة الأوروبية ، وفيهم من يعرف الفن الأوروبى ويتكلم عن المصورين والتصوير ومن يتكلم حتى عن برامس وباخ وهاندل . ولكن النادر أن تجد بين هؤلاء من عرف ان الثقافة الحقيقية شىء والكلام فيها شىء آخر . وقليل من بين هؤلاء من أدرك ان الثقافة العقلية وحدها ليست كل الثقافة . وان الثقافة الكاملة شىء أوسع من ذلك بكثير . ان اكثر هؤلاء المتكلمين فى الموسيقى والتصوير والفنون يعرفونها برءوسهم ولا يدركونها بحواسهم . ان المطلوب للثقافة ليس مجرد المعرفة بل الاحساس والتذوق والتغذى بمختلف الفنون . ماقيمة الكلام عن بيتهوفن إذا كانت اعماله لا تهز نفسك

هزأ . وما معنى الحديث فى رافاييــل أو مملنج أو روبانس أو بوتيتشـيللى إذا كانت صورهم لا تعمر رؤوسنا ليل نهار وتحدث ألوانهم وأصباغهم فى نفوسنا الاحداث . الثقــافة ليست كلاما تملأ به الرءوس ولكنها يقظة الملكات كلها والحواس . إذا سلمت بقولى هذا فلا أبالغ إذا قلت لك ان ليس فى مصر عدد أصابع اليدين من المثقفين ... ؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه :

إنى الآن غارق فى الأدب العربى . أريد أن أدرس قضيته من أساسها . أريد أن أعيد النظر فى أمر اللغة العربية — لغتى — واكشف أسرارها وأضع اصبعى على مواطن ضعفها وقوتها . هذا الوقت هو خير وقت استطيع فيه أن أرى وأميز وأحسن الحكم . فلى عينان قد طافتا — منذ أمد ليس بالبعيد — بمختلف الآداب العالمية . ولقد نجحت فكرتى حقا . إنى اقرأ نصوص هذا الأدب فى عصوره المتعاقبة بعين جديدة . عين عامرة بالصور ، حافلة بالمقارنات

وبنفس رحيمة عادلة صابرة ، تلتمس العلل والأسباب وتطيل التريث والبحث قبل أن تصدر الاحكام .
قبل كل شيء أحب أن أقول لك ان أولئك الذين علمونا اللغة العربية فى المدارس الابتدائية والثانوية كانوا يجهلون لا معنى اللغة العربية وحدها بل معنى اللغة على الاطلاق . إنك لن تجد مستنيراً فى مصر لايقول لك ان اللغة العربية — للأسف — قاصرة عن التعبير فى شتى ضروب العلوم والفلسفة والتفكير العالى . بل منهم من يقول انها ليست لغة تفكير ، انما هى لغة بهرج وتنميق . لماذا ؟ السبب بسيط : هو ان النماذج التى وضعت فى أيدينا ونحن صغار للبلاغة فى اللغة العربية كانت كتباً غثة المعنى متكلفة المبنى . لو كتب بها شخص اليوم لأثار سخرية الناس . نعم . . . انهم يعلموننا فى المدرسة لغة إذا استعملناها فى الحياة ضحك منا الناس ! منذا يستطيع

بعد انتهاء دراسته أن يكتب رسالة على نمط « عبد الحميد الكاتب » أو مقالا أو بحثاً أو تقريراً على طريقة « الحريري » دون أن يتعرض لسخرية الساخرين ؟ ! ليس من اليسير أن أطلعك أو اترجم لك مثل هذا الأسلوب « النموذجي » ! ولكنني أقول لك انه أسلوب يستخدم اللغة استخدام الجوارى للعود فى مجالس الأنس والسكر بقصور هارون الرشيد. أسلوب غايته قبل كل شيء أن يبهر السمع النائم ويطرب الأذن المسترخية . لست أدرى أيجوز أن تجعل لغة من اللغات وسيلة لهو وأداة براعة كفنون المغنين وألعاب الحواة أم ان اللغة اداة يسيرة لنقل الأفكار النبيلة ؟ إنى أفهم أن يضرب مثل هذا الاسلوب مثلا للضعف والسقم لا للسلامة والبلاغة . فان التكلف أبرز عيوب الفن . كان « جويو » يقول ان الرشاقة فى فن الرقص هى اداء الحركة

الجثمانية العسيرة دون تكلف يشعرك بما بذل فيها من مجهود . تلك أولى خصائص الأسلوب السليم فى كل فن . حتى الحاوى الماهر هو ذلك الذى يخفى عن الأعين مهارته ويحدث الأعاجيب فى جو من البساطة والبراءة . لعل الكاتب الوحيد الذى ضربوه للطلاب مثلا فصدقوا هو « ابن المقفع » فى ترجمته لكليلة ودمنة . هذا كاتب تصنع فى أسلوبه هو الآخر ولكن بخفة ومهارة ؛ وطلاه وجمله ولكن بذوق وكياسة . فلم يبد عليه سماجة التكلف ولا ثقل الصناعة . انه ذلك الحاوى البارع . . . أو تلك الحسناء الذكية التى تطلى وجهها بالاصباغ ثم تمسح أثرها الصارخ ، فتظهر وكأن نضارتها نضارة الأصل والفطرة . ان « ابن المقفع » يجهد فى أسلوبه ليخفى أثر الجهد . انه تلك الراقصة الرائعة التى تخفى حركاتها العسيرة فلا تبدو لنا منها إلا تموجات رشيقة يسيرة . هذا الكاتب

هو على كل حال مثل طيب للصناعة فى الكتابة .
على انك إذا أردت أن تعرف حقا جلال اللغة العربية فى بساطتها وسيرها قدما نحو الغرض : فاقرأها عند الفلاسفة والمؤرخين العرب . أولئك عندهم حقيقة مايقولون . فهم لايضيعون أوقاتهم وأوقاتنا فى العبث اللفظي والطلاء السطحى . إنما هم يحدثوننا فى شؤون فكرية واجتماعية وأخلاقية ودينية فى لغة سهلة مستقيمة لا لعب فيها ولا لهو ولا ادعاء . إنى لأدهش كيف ان مؤلفين مثل ابن خلدون والطبرى وابن رشد والغزالى لم يعرضوا علينا قط فى دراساتنا للأدب العربى بالمدارس ؟ ! كيف نعرف لغة بدون أن نطالع فلاسفتها ومؤرخيها ؟ انستطيع معرفة الفكر اللاتينى دون ان نقرأ سنيكا ومارك اوريل وتيتوس ليفيوس وكورنليوس تاسيت ؟ ! لو انه عرضت علينا صفحة واحدة مع شرحها لكل فيلسوف بارز ومؤرخ مشهور

من فلاسفة العرب ومؤرخيهم لتغير رأى أكثر المستنيرين عندنا فى اللغة العربية وقدرتها على التعبير عن أدق الأفكار وأعلاها وأعمقها وأنبلها .. أو ليس بهذه اللغة نقل ابن رشد وابن سينا أعمق آراء فلاسفة الاغريق إلى أوروبا المتعطشة للمعرفة ؟ ! أنتم معشر الفرنسيين فعلتم ذلك فى تدريس الأدب الفرنسى .. ما من كتاب مدرسى صغر أو كبر لا يذكر فيه نماذج من أسلوب « مونتانى » الفلسفى وأسلوب « روسو » الاجتماعى و « بوسويه » الدينى و « فولتير » التاريخى . بل حتى أسلوب « موليير » الفكاهى أحيانا إلى حد التهريج .. ذلك ان المدارس الفرنسية أدركت ان تدريس اللغة يجب أن يشمل كل نواحى التعبير بها ... أما قصر تعليمها على نماذج البلاغة اللفظية الجوفاء فهو امتهان لكرامة اللغة وانتقاص من قدرتها على الأداء . فى العربية كاتب متعدد النواحى له

باع طويل فى الجد والهزل هو « الجاحظ » . هذا أيضاً لم نقرأ له سطراً فى المدارس ... كل كاتب عربى بسيط الأسلوب نافع لنا فى الحياة يقصونه عنا إقصاء بحجة انه غير بليغ .. ويأتون إلينا بالكاتب الذى لا ينفع فى حياتنا إلا نموذجا لاثارة السخرية .. حتى الشعر وهو مفخرة اللغة العربية . الشعر الذى كان يجب أن ترى فيه نفوسنا المتفتحة أول لون من ألوان الفن ... ماذا انتخبوا لنا منه ؟ قصائد المواعظ والحكم ! . . هنالك حقا نوع من الموعظة والحكمة يعرف الشاعر الحق كيف يلبسها ثوبا من الصور الحسية والذهنية ترفعها إلى مرتبة الفن العالى .. (كما فعل أبو العلاء والمتنبى والنابغة الذبيانى فى بعض قصائدهم) ولكن الفرز والتمييز والتخير فى هذا الباب يحتاج إلى حاسه فنية لا يملكها القائمون بهذا العمل .. حتى الشعر الموسيقى والشعر التصويرى الذى عرضوا علينا بعض نماذجه (فى أعمال

البحترى وابن الرومى على الأخص) لم يكن من خير آثارهما .. ليس كل شعر فنا عالياً لأنه يعظ أو يصور أو يرنم ... فالشعر الحق هو شىء أبعد كثيراً من مجرد إصابة الأهداف الظاهرة أو تحقيق الأغراض المباشرة . بل ربما انحط شعر فى عرف الفن العالى لأنه اقتصر على صياغة حكمة أو تصوير منظر أو إحداث جرس .. انما الشعر الحق قد يتوسل بهذه الأشياء لبلوغ مأرب أسمى : هو الارتفاع بالناس إلى سحب لاتبلغ ، والرحيل بهم إلى عوالم لاتنظر . هو أن يريهم من خلال كلماته البسيطة ووسائله البادية أشياء لم تكن بادية ولا طافيـــة فى محيط ضمائرهم الواعية . هو بالاختصار ذلك السحر الذى يوسع ذاتية الناس فيرون أبعد مما ترى عيونهم ويسمعون أكثر مما تسمع آذانهم ويعون أعمق مما تعى عقولهم .. هذا هو الشعر .. وهذا هو المقصود من كلمة « الشعر » فى

اطلاقها على كافة الفنون . مامن فن عظيم بغير شعر . أى بغير تلك المادة السحرية التى تجعل الناس يدركون بالأثر الفنى مالا يدركون بحواسهم وملكاتهم ...

لقد أثقلت عليك يا اندريه بهذا الحديث فى موضوع لايعنيك كثيراً . ولكن من غيرك أبثه كل خواطرى ... ؟ تحمل ... ؟

الاسكندرية فى . .

عزيزى اندريه :

إمعانى فى بحوث الأدب العربى اليوم يجعلنى غير صالح للحديث فى شىء آخر . ولقد فرغت من مسألة اللغة فاذا مشكلة أخرى تقوم أمامى . هى أن الأدب العربى ذاته من حيث هو خلق فنى يبدو لى ناقص التكوين .. والسبب فى ذلك بسيط أيضاً : إذا تأملت الآداب القديمة كلها وجدت أنها قد عاصرتها فنون كبرى . خذ مثلا مصر القديمة والهند والاغريق والرومان الخ . . لقد كانت المعابد العظيمة والتماثيل الرائعة خليقة أن يعاصرها أدب يضارعها

فى قوة البناء ودقة التركيب وروعة الفن : (الملاحم والتمثيل والقصص) . ولكن الذى حدث فى تاريخ الادب العربى كان غير ذلك . لقد نشأت لغة نضرة زاهرة فى بيئة قحلاء وسط الصحراء . لقد كان أقصى ماعاصر لغة امرىء القيس أو لبيد أو زهير من مظاهر الفنون الاخرى تلك المسوخ والتهاويل لآلهة من الحجر . أطلقوا عليها الهبل الكبير والهبل الصغير والعزى واللاتى الخ . . . لا أحسب أحدا يجرؤ أن ينسبها إلى الفن فى قليل أو كثير . إنه حقا لمن مفاخر اللغة العربية أن تبرز وحدها هذا البروز بين الرمال كأنها عرار أو أقحوان . ولعل الفضل فى ذلك للشعر . فالشعر زهر قد ينبت فى الخلاء . أما النثر فيحتاج فى نموه إلى العمران . لكن جاء العمران بعد ذلك بظهور الاسلام وتكونت حضارة اسلامية واسعة الأرجاء . فأقيمت المساجد

الجميلة على انقاض الهياكل القديمة . وشيدت القصور وملئت بالبدائع والطرائف . وتقدمت الصناعات وازدهرت الفنون . وابتلعت المدنية الاسلامية فى جوفها كثيراً من المدنيات . ومع ذلك فان الأدب العربى لم يحاول أن يزيد فى قوالب نثره، أو أن يساير تلك الفنون المعاصرة، حتى بدا للأجيال اللاحقة فى ذلك الفقر الظاهر . والواقع أن الأدب العربى الانشائى لا يختال للأنظار إلا فى ثوبين معروفين « الرسائل » و «المقامات». والمقامات أعمال قصصية قصد بها سرد حكاية وتصوير أشخاص . ولكن الاغراق فى الوشى اللفظى والاحتفال بالوضع اللغوى صرف هم الكاتب عن التعمق فى التحليل والافاضة فى السرد والاجادة فى البناء . فالأدب العربى الانشائى قد عنى باللفظ أكثر مما يجب ولم يشأ أن ينزل عن تكلفه الذى يعتبره فصاحة وبلاغة، ليصور مايجيش

فى نفس الشعب من احساس ولا ما يهيجه من خيال. وهنا حدث أمر عجيب. ان روح الشعب لا يقهر. هـذا الشعب فى عصور الحضارة الاسلامية المختلفة قد تعطش للون جديد من الأدب غير لون البداوة الأولى. لون من الأدب مستمد من احساسه هو بالحياة الجديدة المتطورة المتغيرة ... أدب جديد قائم على فن مشابه ومساير للفنون الزاهرة المعاصرة، التى يراها بعينه ويهيم فى مراميها بخياله . . . فلما لم يشأ أدباء الفصحى أن يمدوا الناس بحاجتهم. لجأ النـاس إلى أدباء من بينهم لا يملكون أداة اللغة ولا جمال الشكل ولكن يملكون السليقة الفنية وروح الخلق . . . وهنا ظهر الأدب الشعبي . . . فما ظهور الأدب الشعبي أحياناً إلا علامة قصور أو تقصير من الأدب الرسمى. أو صرخـة احتجـاج على جمود الفصحاء . . . هـكذا ظهر القصص الشعبي فى صورة

عنترة ومجنون ليـلى وكثير عزة .. . الخ ... وسارت الحضارة الاسلامية فسار معها الأدب الخيالى الاجتماعى الشعبي فاذا نحن أمام عمـل فنى رائع هو « ألف ليلة وليلة » . ثم نبت فى كل شعب من شعوب الاسلام قصصه الذى يطبعه بطابع عصره . فـكان فى مصر قصة « أبو زيد الهلالى » و « سيف بن ذى يزن » و « الظاهر بيبرس » الخ ... ومن الغريب أنك إذا تأملت « التصميم » الفنى والبناء الروائى لهذا الأدب الشعبى وجدته من حيث الفن لا اللغة هو السائر فى الطريق الصحيح محاذياً تلك الفنون الجديدة التى قامت بقيام الحضارة الجديدة . فلقد كان من المستغرب حقاً للباحث أن يرى حضارة اسلامية عظيمة ذات فنون زاهرة وعلوم راقية ولا يجـد فى أدبهـا أثراً إنشائيا مثل « الشاهنامة » أو « الرامايانة » أو « الاليـاذة » أو « كليلة » و دمنة » الخ . . حتى كادت تتهم العقليـة

الاسلامية بعقمها . ولكن الأدب الشعبي الاسلامى صحح الوضع أمام التاريخ العلمى ، وأثبت ان الحضارة الاسلامية سارت فى مجراها الطبيعى . مع هذا الفارق : وهو انه فى الحضارات الأخرى الهندية أو الفارسية أو الاغريقية كان خاصة الشعراء والأدباء هم الخالقين لتلك الآثار . أما فى حضارة الاسلام فقد تخلى الخاصة عن بعض هذه المهمة لعامة أدباء الشعب وشعرائه ووقفوا بعيدين عن كل تغيير أو ابتكار .. حتى القرآن ماحاولوا أن ينتفعوا به انتفاعا فنيا . لقد أتى القرآن بجديد فى فن الكتابة : لا اللغة وحدها .. بل القصص . لقد استخدم الفن القصصى فى التعبير عن المرامى الدينية السامية . ولكن المدهش أن الأدب العربى لم ير فى القرآن إلا نموذجا لغويا .. ولم ير فيه النموذج الفنى ... فلم يخطر له استلهام قصصه أو الاسترشاد بها أو استغلالها استغلالا فنيا مستفيضاً .. إن وحى

الأدب العربي لم يرد أن يتحرك .. لا إلى أعلى ولا إلى أسفل ، لا نحو القرآن ولا نحو الشعب .. من الانصاف أن أستثني واحداً هو « الجاحظ » . إن هذا الكاتب شعر فيما يبدو لي بالغلطة . فسلك مسلكا آخر .. ونزل إلى الشعب يستوحيه ، ويصور أسواقه وبخلاءه ولصوصه وتجاره وشرفاءه وخبثاءه ... في أسلوب بسيط حتى يعد مثلا طيباً للنثر التصويري في عصور الحضارة والعمران ... وهو بعينه الأسلوب الذي أثار على الجاحظ المسكين نقد المتنطعين من أدباء عصره فرموه بالعامية والركاكة والابتذال ... وأريد أن أستثني أيضا بعض الجانب الفني لمقامات بديع الزمان . فهو من حيث رسم أشخاصه وتصوير المجتمع في عصره يكاد يعطينا أحيانا صوراً ناطقة على صغرها ... تذكرني بصور « المنياتور » الفارسي . ولم يفسد هذا الأثر الفني إلا أسلوبه اللغوي . فلو أنه

وضع بلغة الجاحظ فى بخلائه لكان أدنى إلى الكمال .
ولكن هذا الأثر لم يكتب فيما يظهر إلا لابراز
رصانه اللغة وثراء اللفظ وبراعة السجع . أما الفن فلم
يخطر للكاتب على بال ... الواقع أن تباهى أدباء العربية
بالثروة اللفظية والمهارة اللغوية كاد يقتل النثر العربى
نفسه ، فلم ينقذه من هذا المصير ، كما قلت لك ،
غير طائفة الفلاسفة وفقهاء الدين والمؤرخين ومن
شابهم من الباحثين الجادين . وإن مؤرخى الأدب
أو رواته على الخصوص كان لهم أعظم الفضل فى تيسير
اللغة العربية وإلباسها حلة نضرة دون الالتجاء إلى التصنع
الممجوج : « الأغانى » ، « العقد الفريد » ، « نهاية
الأرب » ، « الأمالى » ، « النوادر » ، « البيان
والتبيين » الخ ... على أننا بعد ذلك إذا طرحنا جانباً
أعمال مؤرخى الأدب ورواة أخباره ، على أهميتها
وسلاسة لغتها ، وأردنا أن نبحث عن فن أدبى يعد

فى ذاته خلقا انشائيا فنيا لما وجدنا شيئا يضارع الأدب الشعبي فى : ألف ليلة وليلة وعنترة ومجنون ليلى وأبى زيد الهلالى الخ . فهذه الآثار على الرغم من انعدام الروعة اللغوية فيها وضياع الجانب الشكلى اللفظى قد استطاعت أن تؤثر بمجرد فنها . ذلك ان القوة الخالقة فى روح الشعب لم تضل لحظة عن طريقها إلى الخلق الفنى . ومع ذلك فقد ظل الأدب الشعبى حتى اليوم غير معترف به فى تاريخ الأدب العربى . بل إن أثراً خالداً مثل « ألف ليلة » اعترفت به اليوم كل أمم العالم ... ونقلت قصصه إلى كل لغة ووضعت فى كل يد ... حتى أيدى الأطفال ... (تذكرت الآن أن ولدك الصغير جانو أدهشنى يوم قابلته أول مرة فى كوربفوا فقص علىّ أقصوصة علاء الدين والمصباح على نحو أثار عجبى) هذا الأثر الفنى المشرف لم يعترف به أديب عربى اعترافا صريحاً . لقد انطوت قرون

وما يزال هذا السد قائما كأنه سد الصين بين النثر العربى بسجعه وبلاغته المصطنعة وبين خيال الشعب ورغباته وآماله .. لو أن أدباء اللغة الفصحى هدموا هذا السد من قديم ونزلوا عن بعض جمودهم وسايروا تقدم الفنون فى زمانهم وعبروا عن مطالب عصرهم وشعبهم لكان الأدب العربى اليوم فى مقدمة الآداب العالمية . فليس الروس هم أساتذة القصة ولا الانجليز ولا الفرنسيون ... بل نحن بما لدينا من قرآن عرف القصص . وما خلقنا فى مجتمعنا من أشباه عنترة وألف ليلة وليلة وما وضعنا فى لغتنا من مقامات تعد أساساً لفن الأقصوصة . لأحق من يزعم بأننا أساتذة هذا الفن الروائى .. لكن وا أسفاه .. هم أولئك الجامدون الذين وقفوا حيث هم وتركوا لغيرهم تلك الكنوز يغترفون منها ويربون عليها . إن هذا الذى أسميه سداً بين الجامدين والمجددين ..

أو هذا السد بين الأموات والأحياء كان دائماً موجوداً في تاريخ كل لغـة ... ألا تذكر « دانتي » وكيف حطم هذا السد يوم أصر على أن يكتب « الكوميديا الآلهية » لا باللاتينية لغة العلمـــاء في عصره بل بالإيطـالية لغة الناس في زمانه . . و « مسترال » يوم وضع ملحمته الشعرية الرائعة « ميراى » بلغة الريف الفرنسي ، وهي لغة لم أستطع فهمها مما ألجأني إلى قراءة ملحمته في ترجمتهـا الفرنسية العصرية .. ومع ذلك لم تحل لغة الريف دون تسنم ذلك الشـــاعر قمة المجد واعتباره من أكبر شعراء فرنسا والعالم ، لأن اللغة لم تكن يوما حائلا في أوروبا دون تقـدير الأثر الفني في ذاته . أما عنـدنا فهي حائل دون مجرد الاقتراب منه .. كأنمـا هو شيء مزر بمقام فضلاء الأدباء . لهذا لم تجد أديباً عربياً جرؤ على النظر في آثارنا الشعبية الرائعة من حيث هي فن وخلق طارحا مسألة لغتهـا

جانباً متغاضياً عما فى هذه اللغة من اسفاف وقصور وعدم كفاية . لقد رضى الفضلاء أن ينظروا فى تاريخ الجبرتى وهو تقريباً باللغة العامية ، ولم يرضوا أن ينظروا فى ألف ليلة وليلة وهو أسلم لغة فى نظرى من كتاب الجبرتى . لكن السبب عندهم : أن ذلك تاريخ وهذا أدب . والأدب فى عرفهم مرادف اللغة .. فاللغة .. اللغة هى لدينا شبح الأدباء المخيف . نحن عبيد ذلك الميراث من الألفاظ والعبارات والتراكيب التى وجدناها داخل صناديق المعاجم العتيقة وكتب اللغة القديمة .. أننا ننظر فيها بحرص خشية أن ينفذ إليها نور هذا العصر أو نسيم هذا الزمن فيعبث بنسيج عنكبوتها المقدس ! ياالشبح القدماء المروع ! . ياالشبح الأموات الذى يرهب كل من يعتبر اللغة كائناحياً يتغير ويتطور ، وكل من يحاول التصرف فيها طبقا لمطالب العصر وروح الزمن . . ان اعتصام الموتى ومن معهم خلف

ذلك السد الهائل الذى يقصيهم عن عالم الاحياء بنزعاته الجديدة وأذواقه الخاصة ومقاييسه الشخصية كان هو السبب فى قيام حركات التجديد والاصلاح والنهضة رافعة معاولها فى وجه ذلك السد ... كل عملية تجديد وبعث ليست سوى تحطيم السد بين عالم الأموات وعالم الأحياء . أعتقد أن « الجاحظ » فى مسألة اللغة والتصوير الشعبى وقف بعض الشىء موقف « دانتى » . وحاول أن يحطم ذلك السد قليلا . ولو أن الأمور سارت بعد ذلك سيرها الطبيعى طبقاً لشريعة التطور لتقدمت اللغة العربية منذ زمن بعيد . ولكن الغريب أن نجد كاتباً فى هذا العصر مثل « المويلحى » عندما أراد أن يصور الشعب المصرى — وهو اتجاه طيب — فى كتابه « عيسى بن هشام » لم يستعمل لغة « الجاحظ » ولا حتى لغة « ابن المقفع » بل استخدم لغة الحريرى وبديع الزمان !

بماذا نفسر ذلك ؟ إلا أن يكون هذا هو الاختيار الطبيعى الجديد بعصر نكاس وانحطاط ! على أن البوادر تدل اليوم على نزعة جديدة فى أسلوب الكتابة ... وإن كانت القوالب الأدبية لم تتنوع كثيراً .. ولعل باب « المقلة » هو أبرزها مكانا وأسرعها سيراً فى طريق التطور والتجديد ... غير ان الشعور العام بضرورة التنويع فى الأساليب والأبواب يسرى الآن فى الطبقات المستنيرة ...؟

الاسكندرية في . . .

عزيزي اندريه :

إني أضع دائماً نصب عيني هذه المصادر الثلاثة أستلهمها فنياً : القرآن ، وألف ليلة وليلة ، والشعب أو المجتمع .. ولكن الأسلوب .. الأسلوب . لطالما شغلتك معي بالحديث عن الاسلوب الفني الذي أبحث عنه . أين أجده أخيراً ؟ .. ومع ذلك في وهمي أنه قد يكون على مقربة مني دون ان أشعر . لم لا يكون هو ذلك « الحوار » الذي أنفقت في ممارسته وقتاً طويلا ؟ انه « القالب » الذي بدأت معالجته — كما تعلم — قبل نزوحي إلى أوروبا ، ومن أجله انصرفت حتى عن

الكتابة السياسية « المحترمة » فى نظر أهل بلادى... لا يمكن أن يكون هذا الوقت والجهد قد أنفقا عبثاً . . . لم لا تقول أن « الحوار » هو أسلوبى الذى انحرف بحثاً عنه ؟ لقد كان هو كما تعلم الناحية التى استرعت نظر من اطلع على مخطوطاتى فى فرنسا من أدباء وفنانين . آه ... لو أمكن ادخال « الحوار » قالباً أدبياً وباباً مرعياً فى الأدب العربى ...؟

حاشيه — أتدرى يا أندريه لماذا لا أتوقع نجاحا ؟ لأن التمثيل فى بلادنا أو « التشخيص » هو حتى اليوم بمعزل عن « الأدب » . فالرواية التمثيلية عندنا شىء يمثل ولا يقرأ . وربما كان للأدب عذره ... فالتمثيلية لدينا لا يمكن أن تقرأ ، لأنها قائمة على مجرد الحوادث المثيرة والحركات والمفاجآت . . ولا

تعرف بعد الحوار القائم على دعائم الفكر والأدب والفلسفة ... لكن إذا وجد هذا الحوار الأدبي الفكري الصالح للمطالعة ... فماذا ترى يكون موقف الأدب العربي منه ...؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه

لا يزعجك سيل خطاباتى المتدفق عليك . فانى أذكر قولك إن رسائلى تنفعك أحيانا « لتلف » فيها فرشاة أسنانك وأدوات حلاقتك وأزرار قميصك ومختلف حوائجك الصغيرة فى أسفارك بين ليل وباريس . فما يضيرك إذن استلام الخطابات الكثيرة؟ مادمت لا تجيب ولا تتكلف شيئاً . لعل لكتابى إليك اليوم سبباً واضحا معقولا : فاليوم هو عيدنا الكبير والموسيقى تعزف بالأبواب طالبة ما نسميه « العيدية » . والأراجيح منصوبة . والصبيان

والأطفال يتصايحون وينفخون فى المزامير الصغيرة بملابسهم الحمراء الفاقعة والصفراء والخضراء . والجميع يقول بعضهم لبعض (كل عام وأنتم بخير) فلماذا لا أقول لك أنت أيضاً هذه الجملة ...

ثم هنالك سبب آخر هو أننا فى هذا العيد نضحى بخروف ، ولقد أكلنا ياسيدى اليوم ضلع خروف محمر ، ووالله لقد تذكرتك . ولعلك أحسست اللحم المحمر فى بطنك ، وقد أكلته باسمك كما أكلت أنت باسمى فى ليل (دستة) المحار الأخضر الذى أحبه . لكن وا أسفاه ! كان ذلك فيما مضى . أما اليوم فأنا أحس ببطنى (الزفت والقطران) . فماذا نراك الآن تأكل باسمى ؟ !

لست أدرى لماذا أتذكر الآن كثيراً موقفى معك فى باريس قبيل سفرك إلى ليل . فقد كان بخلى مخجلا وقسوتى شديدة ، إذ رفضت إقراضك كل

ما كنت محتاجا إليه ، وأنا على علم تام بأنى لن أدعك حتى أقرضك ماشئت ، ولكنى أردت تعذيبك ، فجعلت ألوح لك بالمحفظة ، وجعلتك تتبعنى ذليلا فى كل مكان ، حتى قهوة (مونمارتر) إنها كانت ليلة عجيبة . أتذكرها ياأندريه ؟ لقد قلت لك : لانقود إلا بعد سهرة ممتعة . فقد تكون هى سهرة الوداع ... (وقدكانت) .. وعهدت إليك بمهمة اقتناص ظبيتين ، لما لك من خبرة فى هذه الأمور . فجلسنا فى ذلك المشرب المائج بالظباء إلى قبيل الفجر نتجاذب أطراف الفلسفة والفنون . وجرفنا الحديث فى لبنيتز وكانت وديكارت وبرجسون ونظرية الجمال فى الفلسفتين الالمانية والفرنسية .. فنسينا ما كنا قد جئنا لأجله وأغلقت المشارب وأطفئت الأنوار ، فقمنا خائبين نتعثر فى أذيال عاهرات الحى بائرات آخر الليل ؛ ونحن نسأل لنفسينا السلامة من شر (الأپاش) الأوباش

وفجأة إذا بك تشعر كأن ذراعا تضرب فى ظهرك ، فالتفت مذعوراً فاذا هى عاهر شوهاء تستوقفك ، فخلصت نفسك بعد جهد وقد هدأ روعك بعض الشيء وقلت لى : (كنت أحسبها لصا) ! وفاتت مواعيد المترو ووقفت المواصلات ، فلم يكن بد من تمضية مابقى من الليل فى حجرتى القريبة بشارع روششوار . وهى جحر فأر . وكلها ليست غير سرير وتحت سرير . فقسمناها بيننا بالقرعة . فكان حظك أن تحتل أنت الأرض تحت السرير . وما كدت أتمدد على فراشى حتى صحت بى أن لانوم يرجى لى إلا إذا ظفرت أنت بمبلغ القرض قبل النوم . فمنعنى النعاس من مناقشتك الحساب والاستمرار فى تعذيبك . فدفعت إليك المبلغ وأنا نصف يقظان . ونمت واستغرقت فى النوم فلم أنتبه إلا بعض انتباه إليك وأنت تحاول إصلاح جرس « المنبه » المكسور

ليوقظك فى منتصف السابعة . ولست أدرى بعد ذلك هل طاوع المنبه الضيف الكريم فأيقظه فى الموعد المطلوب ...؟ كل علمى أنك استيقظت مبكراً مثل العفريت وملأت الحجرة جلبة وضجيجاً . تارة تفتح الأدراج بعنف للبحث عن منشفة وجه نظيفة ، وتارة تشد مسنّ آلة الحلاقة ، وقد وضعت فيها سلاحاً جديداً هو الوحيد الذى كنت أدّخره لأيام نزهتى . وتارة تزيل الغبار عن ثيابك وقبعتك بصوت كالرعد ... وأخيراً ... سمعت باب الحجرة يفتح ويغلق ... ثم ... لم أرك بعدئذ قط ... ؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه :

أهنئك أولا بعودتك إلى باريس . ولو ان خبر مرض جرمين أحزننى غاية الحزن . وإنى لأوصيك أن تتبع الحيطة فى علاجها وأن تعنى بها العناية كلها مهما يكلفك ذلك من نفقات ...

إن رسائلك يا أندريه تفتح أمامى أبواب موضوعات ، إذا طرقتها فلن أستطيع الخروج منها قبل أن أملأ صفحات . جاء فى خطابك السابق كلام طويل عن نفسى وصفائها وعدم صفائها . أمر لم أرد عليك فيه بنعم أو بلا . على انى حسبت انى أجبت

عنه فى موضع من المواضع . أو ربما كانت إجابتى فى شىء آخر . إن مصيبتى هى فى عجزى عن إخراج ما فى نفسى كما تصورته أول مرة . إن الفكرة لتتكون فى نفسى ، وتنمو وتمتد وتتخذ شكلا منتظماً في رأسى ، بل إنى لأنفق أياما فى بناء الأشخاص فى مخيلتى ، وترديد ما يقولون من كلام وما يتحاورون به من حوار ، ولا يبقى إلا أن أمسك بالقلم لأضع على الورق كل هذه الحياة الزاخرة النابضة ، فاذا . . وا أسفاه ، شىء آخر باهت بارد كالجثمان الهامد هو الذى يخرج . عمل واحد استطاع أن ينجو من هذه النهاية : عمل دفعتنى نفسى إلى كتابته ، دون أن أستجمع فى رأسى شيئاً من تفاصيله أو أستحضر فى خاطرى دقائقه وأجزاءه . . ومن الغريب ان الأشخاص تكونت وتلونت وكأنها تخلق وجودها بذاتها . وسارت القصة بأشخاصها وبى إلى حيث

لا أدرى . إلى أن أخبرتنى الأشخاص أنفسها بالنهاية المحتومة التى لابد لها أن تنتهى إليها ...

لماذا أكتب إليك كل هذا الهراء ؟ أنت الذى برهن لى فى فترات على قلة اكتراثه بما أصنع وبسخريته من آلامى وقلقى النفسى وشكوكى وأزماتى ! لطالما حرصت مع ذلك على إخفاء أغلب هذه الأشياء عنك . ولا تغضب علىّ . لقد شعرت فى يوم من الأيام أن صداقتنا لا ترتكز على التشابه ولا الاتفاق ولا الاتحاد . لقد كنا طرفى نقيض . لم يكن لى حتى حق الافضاء إليك بما يملأ كل كيانى الروحى . أتدرى ما هو هذا الشىء الذى كان يملأ كل كيانى الروحى ؟ هو حمى الخلق الفنى . لقد كنت أخشى استهزاءك بهذا الشىء المقدس عندى . إنى ما كنت أطلعك إلا على ما أطيق تعريضه لسخريتك . انك ما كنت تستطيع أن تفهم ما كنت أنا فيه وقتذاك .

لقد كنت أنت رجل « واقع » أكثر مما ينبغى « لشاعر » ... هل كان فى مقدورك فهم تصرفاتى الجنونية فى ذلك الحين ؟ تصوّر انى قضيت شهوراً أجهد ليل نهار فى عمل أدبى جديد استغرق هو الآخر مئات الصفحات . ولم أفطن لنفسى إلا يوم جاءتنى تلك البرقية تدعونى إلى العودة إلى بلادى . كان فى البرقية هذه العبارة : « احضر بأول مركب . تعيينك تقرر » . وتسلمت بعدئذ نقوداً للسفر وخطابا يوضح لى فيه إمكان شغلى وظيفة بالنيابة العمومية المختلطة . عندئذ شعرت بما يشعر به ملاك فى السحب وهو يهوى إلى الأرض ! أنا ؟ أنا الذى يعيش فى سماء الفن يفكرون له فى وظيفة من الوظائف ! هؤلاء الناس قد جنوا من غير شك ! كيف يخطر على بالهم أن يوظفوا ملاكا من ملائكة السماء ! وأعدت النظر فى خطاب أبى الذى يقول فيه : أنه لا يرى حتى ذلك

الوقت فى بلادنا شخصاً انفرد بحرفة الأدب دون أن يكون له عمل آخر هو عماد حياته وقوام عيشه ... وقال : « انه لايصح القياس مطلقاً بما هو حاصل فى أوروبا . فان الوقت لم يحن بعد فى بلادنا لأن يضحى أحد بمستقبله فى سبيل الأدب مثل هذه التضحية التى لاتدرك البلاد قيمتها ولاتشعر بها ولا بصاحبها » لعل فى هذا الكلام صواباً . ولعلى طلبت إلى أهلى أكثر مما تحتمله الطبيعة الأبوية . واردتهم أبطال قصص يأخذون الحياة كما أتخيلها أنا . هنا فقط تذكرت لأول مرة مسألة « أكل العيش » نعم ، ينبغى أن أكسب لقمتى على الأقل . فأنا مخلوق يأكل ويشرب . ولم يغب عن والدى كل ما يحتمل صدوره منى فنص فى خطابه : « لن أنفق عليك مليما واحداً بعد الآن إذا أخذت المال المرسل للسفر فصرفته فى غير وجهته ولم تحضر ، وضاعت الوظيفة

بسببك » ما العمل ؟ ومخطوطاتى الأدبية لم تتم .
إنى فى حاجة إلى عامين آخرين فى هذا الجو الفنى لأكمل عملى . لقد تغلبت إلى حد ما على صعوبات الخلق والتكوين . ولكن هناك صعوبة الأسلوب .
إنى أكتب الفرنسية . فلا بد لى من امتلاك ناصية الأسلوب الفرنسى . وخاصة ذلك الأسلوب الحديث الذى يشبه موسيقى (سترافنسكى) الحديثة فى تعدد ألوان عباراتها وبريقها الخاطف بالصور ومفرقعاتها المدوية بغريب المعانى ، كأنها سواريخ الأعياد والكرنفالات . لابد لى من المكث بباريس عامين آخرين . كيف السبيل إلى ذلك ؟ هل يستطيع أندريه أن يقاسمنى نصف نقوده ، ونعيش فى حجرة (منسارد) كحجرة إيفان ، ونأكل أكل الكلاب من أجل (تخريفة) لتوفيق الحكيم ! !
هذا ما كان أندريه لاشك قائله : اطمئن يا أندريه .

لم يخطر ببالى قط خاطر كهذا . ربما كنت قد فكرت لحظة في البحث عن عمل بباريس ، ولعلى فكرت فى الالتجاء إليك لتجد لى مكانا صغيراً فى أحد المصانع . ولكنى طردت من رأسى هذه الفكرة على عجل . فأنا أعلم صعوبة الحصول على عمل حتى للفرنسى فى زمن كثر فيه العمال العاطلون . وإن وجد العمل فان نفسى ليشق عليها مزاحمة الفرنسى فى بلاده على انتزاع اللقمة من فيه . وأخيراً رأيت كما تعلم ان الأولى بى الاصغاء إلى نصح مسيو هاب وترك الكتابة بالفرنسية . ووضع عملى من جديد فى لغتى ولغة بلادى التى لازمتنى منذ الصغر . فأنا فى الحقيقة لا أريد مطلقاً أن أكون مثل أولئك (اللقطاء) من الأجانب الذين يلجأون إلى الفرنسية لأنهم لا يملكون لغة قومية عريقة ... انما هو الاضرار العنيف على أن أنتزع من باريس ما يقنعنى بأنى

حقاء قد أصبت من الأدب والفن شيئاً ... وما يقنع أهلي المساكين بأني لم أضع حياتي سدى ... لكأني أردت من باريس شهادة أعود بها في موكب زملائي من دكاترة الحقوق الراجعين بألقابهم العلمية الظافرة :. ولكن باريس خذلتني .. وأفهمتني أن الخلق الفني شيء آخر .. وإن الطريق إلى الفن طويل وعر .. ؟

الاسكندرية في . .

عزيزي اندريه :

أمس فقط طالعت رسالة قديمة منك ، حينما كنت في « ليل » ، فاذا أنت تصفني بأني ذو قلب طيب صاف . بل أكثر من ذلك : قلت اني من « اولئك الأصدقاء النادرين في الصداقة » . وتلك كلماتك بنصها . أتنكر الآن ماقلت ؟ لقد أخبرتك ان هنالك أشياء أو على الأقل شيئا واحدا لا أجرؤ على مصارحتك به ، لأني لا أطيق أن تتناوله بسخريتك . شيء كنت أقدسه ، كما قلت لك ، بكل مايستطيعه قلب شاب طائش . لم يكن الحب ،

ياصديقى ، فى باريس بالقوة التى تخرجنى عن التوازن .
إنما الذى أخرجنى عن طورى هو حب الأدب .
وحلت المطامع الأدبية عندى محل المطامع العاطفية
ولكل حب « عذال » كما نرى نحن أهل الشرق .
وقد كنت أنت عندى « عاذل » الأدب . ترمينى
بالخيال والجنون بحجة ردى إلى حظيرة العقل والواقع .
لذلك ما كان ينبغى لى أن أطلعك على جنونى الأدبى
ومطامعى الأدبية إلا بمقدار . فهل ترانى راوغتك
أو أخفيت عنك شيئاً غير هذا الشىء ؟ ومع ذلك ،
دعنا من كل هذا . انها باريس . انها كانت باريس .
آه ياعزيزى اندريه . انها عندى كانت حلما . وكل
تصرفاتى فيها انما هى من قبيل تصرفات الاحلام !
ما كنت أسير بمنطق العقل قط . ولكن اعرفنى
الآن . . . هاهنا . . وأنا هادىء . وأنا فى اليقظة .
وبعد ؟ فلماذا تشاء أن تحدد طبعى وشخصيتى الآن ؟

ألم أقل لك مرارا انى شخص غير مفهوم الآن حتى لنفسى ! على أنى اعتقد أنى خلقت للخير لا للشر. وإذا نفذ إلىّ الشر فمنكم انتم ياأصدقائى ومعارفى.

اندريه ، ماهذا الانقباض والاكتئاب فى آخر رسالتك ؟ إنك تذكرنى بتوفيق الحكيم فى إحدى أزماته القلبية والفكرية بباريس ! ولا عجب لمثله إذ يكتئب هناك وينقبض على الدوام ، فلقد كان تعسا حقاً . خائبا فاشلا فى كل نوع مارسه من أنواع الحياة ، خاب فى الجامعة ، وخاب فى الحب ، وخاب فى الأدب ، لم يظفر قط بانتصار فى شىء ما . ذلك الانتصار اللازم للشباب كى ينتعش ، لزوم الامطار للأزهار ! لقد صفعه الحب على الخد الأيمن ، ولطمه الادب على الخد الأيسر . ثم وقع أخيرا ذليلا على أرض العذاب النفسى إذ تذكر انه مازال يعيش من مال أهله . فهو ليس حرا حتى فى الفشل . وليس له

الحـق حتى فى حرية الرضا بالشـقاء . ولـكن انت يااندريه ؟ ماالذى يقبض نفسـك ويملؤك اكتئاباً ؟ لعله منظر الخريف الـكئيب حولك وتساقط الاوراق الصفراء . ان قلب الشاعر « مقياس حرارة » يتأثر أحيانا بمظاهر الطبيعة ، فيبكى لبـكائها ، دون سبب آخر يدعوه إلى البكاء . لم يتح لى فى لحظة من لحظات حياتى أن أحزن لحزن الطبيعة أو أبسم لابتسامها . فان ماعندى من أزمات داخلية شـغل قلبى دائما عن الطبيعة . ان عينى مصوبتان دائما إلى أعمـاق قلبى ! آه لو نزع عنى قليلا هذا « الجراب » المملوء بالارزاء ! يبـدو لى يااندريه انى إذ أرفع بصرى إلى الحيـاة الخارجية وأنسى نفسى الداخلية ، يعود الى الصفـاء ويشرق وجهى بروح الفـكاهة والمرح . إنى أستطيع أن أكون أكثر النـاس مرحا ودعابة وضحكا . فأنا أملك هـذه الروح الفـكاهية أحيانا . ولـكنى

لا أجرؤ على الابتسام طويلا . لاتحسب يا اندريه ان أسباب كآبتى وضعف ثقتى بنفسى قد زالت الآن . على النقيض . ومع ذلك فها أنت ذا تشعر بتغير فى حالتى النفسية . الواقع انى تغيرت . فأنا هادىء ، صاف ، مطمئن ، فلا حمى ولا حرارة ولا حماسة . . ولا شىء يهزنى من تلك الأشياء . ربما كان هذا لأنى لم أعد أطمع بعد فى شىء . فأنا أسير فى يد الزمن كما يريد لا كما أريد .

معذرة إذا كنت أتجنب الكلام فى انقباضك أنت ، فأنا أحب أن تعلم انى لا أعيره أهمية ولا التفاتا وانى لاراه غمامة سوداء من غمام الخريف . إن ثقتى فيك وفى قوتك وفى نجاحك فى الحياة لعظيمة . وختاما أنصح لك أن تصحح عقيدتك فىّ مرة أخرى ...؟

طنطا فى . . .

عزيزى أندريه :

أهنئك « بالنويل » وبالعام الجديد من مدينة « طنطا » ، فقد عينت وكيلا للنيابة بهذه المدينة انها عاصمة إقليم يعد أكبر أقاليم القطر المصرى . لك أن تفخر إذن بصديقك بعض الفخر ! لن أمضى فى الكتابة لأنى غير متتبع ما تفعل الآن . فقد انقطعت بيننا السلسلة ، وأخشى أن تكون غير مستعد لانفاق بعض الوقت فى مطالعتى

إنى مطمئن كما ترى بعض الاطمئنان . فالعمل فى القضاء قد قضى على كثير من هواجسى الأولى

إنى أبت الآن فى حياة الناس ، وأطلب رؤوس الناس .
فيجب على الأقل أن يكون لى رأس يدرى مايصنع .

ومع ذلك . كلا . . لست فى الاطمئنان الذى تظن . اكتب إلىّ . اكتب إلىّ يا أندريه كما كنت تصنع من قبل . انك لاتدرى خطورة سكوتك !.. ؟

طنطا فى . . .

عزيزى اندريه :

رسالة منك ... أخيراً ؟ ! آه صدق من قال ، وأنت نفسك القائل ، أن لا يجب أن آخذك أحياناً على سبيل الجد . لو علمت كيف أقمت الدنيا فى نفسى وأقعدتها لسكوتك . وأخيراً ها أنت ذا تتكلم فاتراً باسماً تلك البسمة الساخرة لتقول لى فى هدوء وبساطة : « لماذا كل هذه الأهمية التى تريد أن تعطيها لسكوتى ! » يالله ! بماذا أجيب ؟ لاشىء . ان الحق لاشك فى جانبك .

والآن فلنتحدث . تقول انك لاتكتب إلىّ

لأنك الآن تعيش بلا تفـكير . عجباً ، أو لا يمكن أن تكتب إلى بغير أن تفكر . أحقا ان اتصالنا الكتابي له عندك كل هذا الاعتبار ! أتراه قد سلم من عبثك وهزلك ؟ وما عساك تقول إذا أخبرتك انى الآن أبعد منك شوطا فى هذا السبيل . عبثا تحاول اليوم أن تتعرف فىّ محب الأدب والفن والتفكير . كلمات كانت هى كل حياتى منذ سنوات وإن شئت فمنذ ... وجودى . تقول ان ليس لديك الوقت الآن للمطالعة والتفكير : فان الحياة قد جرفتك فى خضمها . هذا حسن . أما أنا : فحتى إن وجدت الوقت فلست واجداً الجو ولا المحيط ولا البيئة ولا المناسبة . كل ما يكتنفنى اليوم من مناظر وجماد وإنسان لا يثير فىّ شيئاً مما يرفع النفس فوق ذاتيتها . فكل ما حولى هو مما يهبط بالنفس أدنى من ذاتيتها . إنى أعيش فى جو الجريمة . وأحيا فى عالم الغرائز

الدنيـا . إنى مع القبـح الآدمى ، المـادى والمعنوى ، ليل نهار ووجها لوجه ! La Laideur !.. La Laideur .

أهذه هى الحقيقة ؟ أهذا هو عالم الواقع الذى كان ينبغى أن اهبط إليه ؟! لعلك تريد أن تسألنى متعجباً : كيف أنت كوكيل نيابة ؟ » لأنك مازلت تعتبرنى الشخص الغارق فى الخيال . ولم تستطع قط أن تصحح من رأسك تلك الصورة . وا أسفاه ! . . لو علمت كيف تحطم اليوم هذا التمثـال ! الأدب والتفـكير لم يبق معى منهما شىء . تقول فى آخر رسالتك انك بدأت مع ذلك تطالع « تاريخ الفلسفة » و « أرسطو » . واهاً لنفسى وما وصلت إليـه ! لكم كنت أود لو أظل طول حياتى فى تاريخ الفلسفة . أى جمال فكرى تحرمنا إياه الحيـاة لتقذف بنـا وسط هذه الجثث والأشلاء ! لـكنك أردت لى يوماً أن أواجه عالم الواقع . فهـاك ما أردت . ها أنذا فى عالم الجثث

والجيف ! ، أنا الخيـالى الذى لا يعرف من الانسان إلا مافى الـكتب (الفلسـفية أيضاً) ، أقف الآن فى كل يوم على عمليات تشريح جثة الانسان ! أنا الذى اعتقـد فى نفسه طويلا رقة الحس إلى حد الارتعاد من منظر اصبـع تجرح ، مما صرفنى يوماً عن التفكير إطلاقا فى دراسـة الطب ، آمر الآن طبيب المركز بتقطيـع أوصال الجثث بالمشرط فى حضرتى لأنظر إلى تجاويف الصدر والقلب والأمعاء . أنا الشاعر مرهف الشعور ، أطلب و أشاهد الجزر والتقطيع ولا أرتعد . أنا الذى كان يحسب الانسان ، كما صورته الكتب وتخيله الشعر ... لقد فهمت الآن انى حقيقة كنت طفلا إذ كنت أجهل من أى شىء نتركب نحن . ولكنى من جهة أخرى فهمت أيضا كلمة « جوته » : « ان العلماء يزعمون انهم فهموا الانسان وقد نزع عنه أثمن شىء فيـه ، بل كل شىء فيه ...

(ربما قصد الروح وحياة الحواس) ! . من المستحيل على من لم يحضر التشريح قط أن يدرك معنى كلمة «جوته» على حقيقتها . لقد أفادنى التشريح فى شىء : لقد خرجت منه و أنا أشد إيمانا بالروحية من قبل ، وأقوى إيمانا كذلك بأنى رجل يستطيع أحيانا فى سبيل حب المعرفة ان يكون غليظ الكبد فاقد الشعور . . وبأنى رجل يدرك أيضاً قيمة الحواس المادية فى الانسان ... أجل يا اندريه . درس التشريح ثبت إيمانى بالروحية والمادية معاً فى كيان الانسان . وجعلنى أتأمل مرة أخرى وأعيد النظر من جديد فى قضية الأدب . وأتساءل ما رسالة الأدب إلى الناس ؟ . . أهو نصرة الروح أم نصرة المادة ؟ لقد اعتاد المفكرون تحقير المادة للرفع من شأن الروح . ولكن أليس للمادة صوفيتها هى أيضاً ؟ ! ان العين النشوى بمنظر جميل ، والأنف السكران بشذا

عاطر ، والفم الهانىء بمذاق لذيذ .. وكل حواسنا التى تصلنا بعالم المادة لقديرة أحيانا أن ترفعنا إلى سعادة شبه روحية، كلما تنبهت هذه الحواس وتيقظت وتدربت وعرفت كيف تستخلص من المادة أجمل مافيها ..
إن حواسنا المادية هى أحيانا الجسر الذى نبلغ به عالم الروح . هنا استطيع ان اقول لك ان الادب العربى على ضعفه البنائى وفقره فى القوالب الفنية ، كان غنيا فى مراميه واتجاهاته . فهو لم يطرح من حسابه الاشادة بالسعادة التى تبعثها الحواس المادية ، إلى جانب إشادته بالمتعة الذهنية التى تصدر عن قوانا المفكرة .
ففى أغلب كتب الأدب العربى تجد فصولا طوالا عن مباهج الأكل والشرب والطعام والخمر والمسك والريحان ومتع الملبس وحتى متع الجسد أو مايسمونه « الباه » .. كل ذلك يسجلونه بعناية لا تقل عن عنايتهم بالفصول الأخرى التى يدونون فيها لذائذ العقل وطرائف البيان. وهم يكتبون وينظمون فى

موضوعات حسية مما نسميها شائكة بصراحة تامة . لأن « الفضيلة » عندهم سلوك ومعاملة ورجولة وشهامة لا إنكار لمطالب الحواس ولا إغفال لقوانين الطبيعة . ذلك فى نظرى دليل الحيوية . وإنى لم أدرك معنى « الحيوية » على نحو عميق إلا يوم حضرت (التشريح) عند ذاك بدأت أرى ان رسالة الادب ليست نصرة الروح على المادة أو نصرة المادة على الروح . انما رسالته إقرار التوازن بينهما بانماء هذه (الحيوية) فى كل منها لان (الانسان الحى) حقا هو ذلك الكائن الذى تيقظت فيه كل حاسة وملكة . مادية أو روحية . وتكونت وتهذبت حتى استطاعت أن تحصل له وتتخير أجمل ما فى الوجود من عناصر السعادة الروحية والمادية .. أعتقد ان تلك غاية البشرية كلها منذ القدم : ترى أثرها فى الوثنية (مصر القديمة والهند والاغريق والرومان) ثم فى الاسرائيلية

والاسلام .. ولم يشذ عنها إلا عصر الرهبنة المسيحية في القرون الوسطى حيث طغت فكرة تضحية الجسد من أجل الروح ، فأهانوا المادة .. تلك الاهانة التى مازالت لاحقة بها حتى اليوم . وخلطوا الفضيلة بالزهد .. وخلطوا الرذيلة بالمتعة .. وتغير مدلول كلمة « الاخلاق الفاضلة » فى ذلك العصر عن مدلولها فى عصور الحيوية والفطرة ولم يخفف عصر النهضة فى اوروبا من تلك الفكرة فيما يتعلق بالادب إلا تخفيفاً يسيراً . فلبث الادباء والشعراء هناك حتى العصور الحديثة يرون واجبهم فى تحقير المادة والحواس المادية عند الانسان . فى رأيى ان إغفال أى حاسة من حواسنا هو اقفال باب من أبواب المعرفة . إن المعرفة البشرية لاتدخل إلينا من باب العقل وحده . إنما تتسرب الينا من كل مسام جلدنا وجسدنا وذهننا وروحنا ووعينا الظاهر والباطن . فمن كان يتوق حقاً

إلى المعرفة الكاملة والحقيقة العظمى فليفتح لها كل الأبواب والنوافذ ... كنت أود أن أحدثك طويلا عن حياتى الجديدة فى طنطا . ولكنى اكتفى اليوم بأن أقول لك انى اقطن النزل النظيف الوحيد فى هذه المدينة . وهو « بنسيون » يحوى من النزلاء ثلاثة من الفرنسيين . وانجليزيا واحدا واثنين من الألمان . وهم من المدرسين وموظفى البنك . وقد اشتريت جراموفون جديداً . وأحضرت من القاهرة أخيرا « السانفونية السادسة » أى الريفية . وقد كلفتنى مائة وخمسون قرشا . وأوصيت بشراء « التاسعة » وهى فى عشر اسطوانات ، للشهر المقبل ... ؟

طنطا فى . . .

عزيزى اندريه

أشكر لك أقفاص المحار البرتغالى التى أرسلتها إلىّ مصورة على ظهر « كارت پوستال » . انك عرفت كيف تثير منى الذكرى وتجرى من فمى اللعاب . وبعد ، فلقد تباطأت فى الكتابة إليك لأنى بالخبرة والتجربة تبين لى انك ذواقة فى شئون الفكر ، كما أنا كذلك فى شئون الفم ، على الأقل على حد اتهامك اياى . فرسائلى التى لاتعجبك لاتحسب عليك . لهذا آثرت السكوت على الكلام الفارغ هذا سبب . والسبب الآخر ان حياتى الآن تتعارض

قليلا مع الكتابة . لأنها حياة : وليست بعد تعبيرا عن الحياة. لكن ما أسعدك أنت بهذا . . . ! هذا كل ما كنت تتمنى لى : الحياة . نعم ياعزيزى اندريه . . . انى غارق فى الحياة والواقع إلى اكثر من أذنى . وثق أن التعبير عن هذه الحياة هو مالا أريد الاشتغال به الآن ، حتى لا يقال انى فى وظيفتى القضائية وفى كرسى النيابة انما أقعد على « فوتيل » رقم كذا لأشاهد الحياة مشاهدة النظارة فى قاعات التمثيل . ولن يقول هذا أحد سواك ! وربما مسيو هاب لو علم ! كلا . انى أعيش الحياة وكفى . فلنترك إذن رواية خبرها للمستقبل . ولنسطر أفكارنا العابرة فقط ، تلك الأفكار الفارغة التى لا بد منها لملء رسائلنا . على أن هذه الأفكار قد ذهبت عنى الآن أيضا . ولم يبق منها ما يستحق أن أبعث به اليك . فاعذرنى إذا ألقيت على الورق بكل ما يمر برأسى من خواطر ...

. . .

أندريه ! يجب أن تعلم أن نافذة حجرتى تشرف على ميدان « الساعة » . ولكى تعرف أهمية هذا الميدان يكفى أن أخبرك أنه فى طنطا بمثابة ميدان « الكونكورد » فى باريس ! . . ومع ذلك فانه ليخجلنى أن أصف لك ما تقع عليه عينى وسط هذا الميدان . لست أعنى البشاعة الفنية التى تقوم عليها تلك الساعة الكبيرة : فمما لاريب فيه انه لم يرد فى خاطر أحد أن يقيم فى ذلك المكان شيئاً فنيا على الاطلاق . بشعا كان أو غير بشع . أما الذى أعنيه هو انعدام كل ذوق وزوال كل لياقة .. فقد أنشأوا وسط الخضرة المغروسة فى قلب الميدان بناء ظاهراً وهيكلا بارزاً ، يكاد يشمخ على غيره من المبانى بجلال موقعه .. أتدرى ماهذا البناء ؟ انه ليس أثراً تاريخيا ، ولا نصباً تذكاريا ولا معبداً فنيا : انه مرحاض

عمومى ! . . ومع ذلك فلا تنس اننا نحن الذين أهدينا إليكم تلك المسلة الرائعة التى عرفتم قدرها فاخترتم لها أرحب مكان فى صـــدر باريس : وهو ميدان « الكونكورد » ! . ثق ان لدينـا من أمثـال هذه المسلة عدداً كبيراً ملقى هنا وهنـاك فى الرمال ... ولكنهم عندنا يفضلون المراحيض .. لأنها فى نظرهم أنفع على الأقل وأجدى ...

. . .

آه يا اندريه ! كل يوم تبرهن لى الظروف على انى كلما دنوت من منطقة الفن والفكر فى مصر أصاب بخيبة أمل ! . . ان روح الجمـال والفن لم يحل بعد أو على الأصح لم يبعث من جديد فى أرض مصر الحديثة : من المسئول عن قتل روح الفن فى مصر وقد كانت هى منبـع الفن منذ القدم ؟ انى لست من رأى القـائلين ان العرب هم المسئولون . . ان العرب

ليسوا بهادمى حضارات . انهم طافوا بمدنيات زمانهم يأخذون وينبذون ، ويتخيرون ويتركون .. ولكنهم ماهدموا قط وما حطموا . ان المسئول هم المغول .. ذلك الجنس القادم من أواسط آسيا بلا حضارة ولا مدنية ولا مزية غير مزية الحرب والضرب . أولئك هم الذين حطموا المدنية الاسلامية بما جمعته ونقلته وصقلته من مختلف الحضارات . . ان مجرد الاطلاع على تاريخ مصر فى تلك الحقبة المظلمة التى وصفها « الجبرتى » ليكفينا ان نرى الى أى درك هوت بلادنا المسكينة . بل ان لغة الجبرتى فى ذاتها ، وقد كان من خيرة علماء الأزهر وقتئذ ، لأنصع دليل على ان اللغة العربية نفسها قد سقطت فيما سقط تحت سنابك جياد أولئك البرابرة ! . . وخرجنا من هذا الظلام كما خرجت أوروبا من القرون الوسطى . هى ارتمت فى أحضان الاغريق وارتمينا نحن فى أحضان

العرب . هى سارت فى عصر النهضة من التقليد الى التجديد . ونحن لم نزل فى طور التقليد . ولعل هذا يفسر لك أسلوب « المويلحى » الذى حدثتك عنه ذات مرة . على ان هناك بوادر كما قلت لك ، ولا اكثر من بوادر ، تدل على اننا بدأنا نتحرك نحو عصر نهضتنا . ولكن السير الجدى نحو هذه النهضة يتوقف على ثقافة القائمين بها . فنحن نعيش اليوم فى عصر حضارة عظيمة ، هى الحضارة الأوروبية . فأى جهل منا بفرع من فروع هذه الحضارة معناه التخلف والقعود . ان روح الحضارة الاسلامية الحقيقى كان الطموح إلى الالمام على قدر الامكان بكل الأفكار والمعارف والعلوم والفنون الشائعة فى الحضارات المعاصرة لها . ومما لا شك فيه عندى انه لو لم يكن المغول لما تخلفت الآداب العربية والفنون الاسلامية عن نظائرها فى الحضارة الأوروبية القائمة . لأن

التبادل الفكرى كان دائما قائما بين حضارة الاسلام والحضارات الأخرى . وإن من السهل أن نتصور المجرى الطبيعى للمدنية الاسلامية إذا استبعدنا الخطر المغولى . لقد كان فلاسفة العرب متصلين بأوروبا . وكانت عقلية العلماء والأدباء فى الممالك العربية متفتحة لتقبل كل تطور تأتى به روح العصور التى يعيشون فيها . فما كان هناك سبب قط يدعو التفكير العربى إلى التخلف عن أى تفكير معاصر يتطور ويتجدد . فاما أن يسير فى موازاته ، وإما أن يأخذ منه ويعطى ، ويؤثر فيه ويتأثر به ، ويحدث بينهما ما يحدث الآن بين التفكير اللاتينى والتفكير السكسونى من تفاعل وتداخل وتعانق وتزامل . . . فاذا أردنا القيام بعصر نهضتنا جديا فعلينا التشبع بهذه الروح . أما ان نظن النهضة فى مجرد تقليد العرب بالحالة التى وقفوا عندها يوم انهيارهم أمام المغول ، دون أن نلقى بالا إلى

القرون والأجيال التى انطوت وذهبت وفصلت ذلك العهد عن عهدنا الحاضر بما استجد فيه من علوم وفنون وأساليب حديثة : فهو حمق وعمى وجهل لو اطلع عليه العرب الأقدمون أنفسهم لسخروا منه ومنا .. من أجل ذلك كان الشرط الأول ، فى نظرى ، هو الثقافة التامة ... نعم ، ينبغى لنهضتنا رجال من طراز رجال عصر النهضة فى أوروبا : رجال موسوعيون يحيطون بكل ثمرات الذهن ونتاج العبقرية فى الحضارة المعاصرة لهم والحضارات السابقة عليهم . ولكن مع الأسف . . . أغلب رجال الفكر والأدب عندنا لا يريدون أن يلموا بأكثر من المادة اللفظية التى تمكنهم من تدبيج المقالات التى يحتذون فيها النماذج العربية القديمة . تصور أن كاتباً مثل « المويلحى » نزح إلى أوروبا هو الآخر مثل كثيرين من أدباء عصره ... لكن عبثاً نحاول أن نلمح فى آثاره أو

آثارهم ما ينم عن معرفة أو تذوق لفنـون أوروبا. إني لأتساءل: أكانوا يسيرون هناك معصوبي الرأس لايبصرون ولا يسمعون؟!.. ما الذى كان يصد عيونهم عن آداب تلك الأمم الحية وهى معروضة فى الطرقات تصـيح من واجهات المـكتبات؟!.. وما الذى كان ينيم أرواحهم فلا يفطنون إلى جمـال الهياكل وآثار الفن. القائمة هناك فى كل مكان، تـكاد تصفع بسحرها البصـائر والأبصـار... ولا تدع ذا فهم وذوق حتى تبعث فيه النشاط إلى الاطلاع والاغتراف من كل ينبوع من ينابيـع الفكر والروح. يخيـل إلىّ أن «الحريرى» نفسه لو بعث من قبره ووضع هناك لما طال به الأمد عن التنبه والتفطن والانتعاش والانتفاع بكل ماينبض حوله من مظاهر الحضارة الحية القـائمة. ان العرب كانوا ذوى يقظة وفطنة وإحسـاس وتأثر بكل ما جاورهم وعاصرهم من

مدنيات . إن أدباء هذا العصر لمن طراز غريب . إنهم لا يمكن أن ينسبوا إلى العرب ، حتى وإن أجادوا تقليد أساليبهم . إنهم فى رأيى طراز قد طعم بالروح المغولى . ذلك الجنس الذى يقلد ولا يبتكر ، ويسيطر ولا يبصر . ذلك الجنس الذى استطاع أن يبلغ أسوار « فيينا » ، ويتوغل فى أوروبا دون أن يرى شيئا من تقدمها الذهنى ، ودون أن ينتفع بشىء من حضارتها الفكرية . كل مجد المغول فى الحرب . وكل فنهم تقليد بعض ما وقع فى أيديهم من الأساليب العربية تقليداً ضيقاً . وكل فكرهم حفظ بعض النصوص الاسلامية حفظا مغلقا ... وهكذا ورث تلك العقلية المغولية أدباء العربية فى هذا القرن . فلم يروا شيئا ولم ينتفعوا بشىء غير ذلك . ولم يخرجوا عن نطاق تلك الدائرة المقفلة . حتى الفكر الاغريقى الذى اتصل به العرب وتفقهوا فيه وكشفوا للعالم عن

مراميه ... هو أجنبي عنهم . ومن باب أولى الأدب الاغريقى وهو أعقد من الفلسفة الاغريقية وأعسر ، لانه متصل بالفنون الأخرى اتصالا وثيقا . خذ المآسى الاغريقية مثلا . محال أن ينفذ إلى لبها وروحها من ليست له دراية ، لا بفلسفة الاغريق وحدها ، بل بكل أساطيرهم وفنونهم من النحت إلى الرسم على الأوانى . لا أمل لنا كما ترى فى تجديد الادب العربى إلا بالاطلاع الواسع والثقافة الشاملة . إن تربية أهل الأدب فى مصر حتى مطلع هذا العصر هى تربية لغوية ، قوامها الكتب . ثقافتهم الكتب وحدها . بها نشأوا وعليها وحدها اعتمدوا فى تكوين ملكة الانتاج . هل يمكن أن نجد كاتبا اوروبيا يعتمد فى تكوين ملكاته الخالقة على الكتب وحدها ؟ .. هل يوجد أولا مثل هذا الكاتب فى اوروبا ؟ وإذا وجد هل يستطيع أن ينتج هذا الانتاج الذى تراه

يرتكز على فن متين التركيب أصيل التفكير . ان التربية الكاملة الشاملة لمختلف الفنون منذ الصغر هى التى تنمي عند الاديب الاوروبى ذلك الاحساس بالتناسق الفنى الذى يرفعه إلى هذه المرتبة من مراتب الخلق والابداع . وإذا سألتنى عما أعنى بالتربية الكاملة فانى أقول لك : هى تربية جميع الملكات والحواس مجتمعة . فتربية ملكة العقل وحدها لا تكفى عند رجل الأدب والفن ان لم تصاحبها تربية حاسة البصر وحاسة السمع ... وحتى حاسة الشم والذوق . . . التربية الكاملة للحواس والملكات هو ما أسميه « الثقافة الكاملة » . لاينبغي لأديب أوفنان أن يترك حاسة من حواسه همـلا بغير تكوين ، عاطلة لا تؤدى عملا . يجب أن يعلم منذ الصغر ان لكل حاسة « آداب لغتها » . وان عليه أن يحذق « آداب اللغات » جميعها لكل حاسة من حواسه .

فكما ان آداب لغة العقل والفكر تقرأ في الكتب والمكتبات . فان آداب لغة العين تشاهد في المتاحف والمعارض والهياكل والآثار الفنية والمناظر الطبيعية. وان آداب لغة الأذن توجد في قاعات الموسيقى والتمثيل والغناء، وان آداب لغة الشم في العطور الجميلة . . . ولغة المذاق في المآكل اللذيذة ... الخ ... يجب أن يعلم الأديب والفنان ان من واجبه أن لا يجهل قط وجود « الجمال » الاسمى عند كل حاسة من حواسه . وان هنالك عباقرة قد استطاعوا التعبير عن هذا الجمال... وتمكنوا من استخلاصه واستصفائه وصبه في قوالب فنية رائعة : هي الكتب والصور والتماثيل والمعابد والسانفونيات والأوبرات والأناشيد والتمثيليات والأشعار والأزهار الخ... ما الفنون المختلفة بآثارها الباقية إلا « آداب لغة » كل حاسة من حواسنا . . فعلينا أن نلم بتاريخ أدب هذه اللغات ، وأن نتذوق

أجمل نصوصها فى كل ناحيـة من نواحيها. وأن لا نقصر التفاتنا على أدب دون أدب. فنظن الجمال فى آداب لغة العقل وحدها، أو آداب لغة الفكر انما يجب أن نعلم ان لكل حاسـة عوالم من الجمال لا نهاية لها... وانه ينبغى لنا، إذا أردنا الارتفاع بآدميتنا، أن نسمو إلى تلك العـوالم وأن نجوس فى أرجائها الواسعة. مهتدين بقيادة عظماء الفنون الذين طافوا بها قبلنا واستكشفوا قممها وغاصوا على كنوزها. نعم... لكل حاسة وملكة صحائفها الرائعات فى تاريخ العبقرية الانسانية الخالقة. ولا بد من الاطلاع عليها جميعا لمن يريد أن يضع يده على اسرار الخلق فى الأدب والفن... تلك هى التربية الكاملة والثقافة الشاملة التى أراها ضرورية لأدباء عصر النهضة. وإذا كان الأدب العربى فى هذا القرن واقفا عند تلك المرحله البدائية، فذلك لأن أكثر

الأدباء لم يتلقوا بعد هذه التربية الكاملة التى تؤهلهم لتحمل أعباء الخلق الفنى الكامل ...

. .

البارحة كنت فى القاهرة وحضرت حفلة غناء شرقية . فرأيت عجبا . . ! الحاضرون هم ولاشك من أهل القرن العشرين . ولكن الموسيقى هى من غير شك موسيقى القرن العاشر ! . .

. .

أخفيت عنك يا اندريه انى كتبت منذ عام وأنا فى الاسكندرية شيئا كالقصة التمثيلية . بنيته على سورة من « القرآن » ... وجرفتنى المشاغل فتركت هذا العمل فى حقيبة لى . وكدت أنساه لو لم أفتح الحقيبة عفوا منذ أسبوع ... قرأته أو على الأصح قرأت حوار البطل والبطلة . وكانت إحدى مقطوعات « بيرجنت » لأبسن فى موسيقى « ادوار جريج »

الجميلة تتصاعد من الجراموفون . . . يا للمفاجأة ..!؟
أأنا الذى كتب هـــذا المنظر ؟ لقد غمرنى يا اندريه
جو شعرى . لست أدرى بعـــد أمبعثة القصة أم
الموسيقى . لقد تأثرت حقا من هذا الحوار الغرامى !
لأول مرة أتأثر لشئ خطته يدى . حبذا لو أستطيع
أن أترجم لك هذا المشهد ، لترى معى هل أنا واهم أو
مصيب ؟ .. أما بقية العمل فلم أجد فيه ، للأسف ،
ما هز نفسى ... »

طنطا فى ٨ يوليو . . .

عزيزى اندريه

ما أعظم سرورى برسالتك التى جاءتنى على غير انتظار . فكم طال بنا الصمت . وبى رغبة شديدة فى طول الحديث معك . ولكنك تغيرت قليلا يا اندريه، وانكمشت صحائفك وندرت رسائلك مما ينذرنى بشر مستطير ! عهدى بك سيال القلم . ولا شك لديك ما تقول لى وتمسكه عنى قسوة منك . ألا قاتل الله صحبتك ! أماقولك انك بدأت تكتب فوجدت الرسائل سخيفة فآثرت السكوت فهو عذر لا يبديه مثلك لمثلى . ألا تخجل ؟ انى لا أطلب إليك أن تقوم

بانشاء رسالة بالمعنى الأدبى للكلمة . ولعلى كنت كذلك ذات يوم ولم يشفنى من ذلك الداء غير مصارحتك اياى يوما بأن بعض رسائلى تنفعك «للف» الحوائج الصغيرة من أزرار قمصان إلى مواسى حلاقة ! اذن ما معنى كلمة السخف عندك ، انت الذى لا يعجبنى منـــه سوى رسائله التى لا معنى لهـا ، وصفحاته التى يخلط فيها الحابل بالنابل ، ولا يتحرج أن يستعمل الفاظ «أباش» مونمارتر وأوباش مرسيليا! انه ظلم . اقسم انه الظلم بعينه : أن أكتب إليك أنا كل هذه الرسائل ، مع ما أنا واقع فيـــه من عمل مهلك . ان مجرد وصف عملى ومقداره خصوصا فى فصل الصيف ليحتاج إلى إفراد رســالة طويلة . تصور انى أعمل بدل ثلاثة من الزملاء . إذ ليس لى أجازة هذا العام . أو الأصح انى نزلت عنها للآخرين شهامة منى أو حماقة . البرنامج اليومى كالآتى :

عمل فى دار النيابة من الثامنة صباحا إلى الثالثة بعد الظهر. ومن الخامسة مساء إلى الثامنة: لتحقيق التلبس وقضايا المكتب. هذا عدا القيام لضبط الحوادث الليلية! نعم، ذلك ان وكيل النيابة فى مصر هو مخلوق فريد فى نوعه فى عالم المخلوقات القضائية. فهو يقوم بعمل النيابة وقاضى التحقيق معاً وفى نفس الوقت، بالمعنى المعروف لهذين العملين المنفصلين فى فرنسا وانجلترا ودول الأرض قاطبة. لذلك ترانى عدا عمل النهار الشاق أقوم كل ليلة تقريبا لأضرب فى كل طرف من أطراف مديرية الغربية، حتى ضجت بالشكوى مدام «بلانشان» صاحبة البانسيون، وضج معها النزلاء، من طرق الخفراء ليلا على الباب لايقاظى، وضججت أنا بالطبع وأصابنى الأرق والسهاد! كل هذا أيضا عدا الجلسات. أتدرى كم جلسة علىّ حضورها فى الاسبوع؟ أربع

جلسات . وهذا أيضا خلاف الايراد اليومى وهو لايقل عن خمسين ملفا تحوى قضايا من كل لون وصنف : جنح ومخالفات وعوارض وشكاوى ادارية، يجب فحصها وقيدها وتقديمها للمحكمة أو حفظها .. كل ذلك فى يوم ورودها ! لقد قلتها ذات مرة فى صيحة وأنا أكاد أجن : ان وظيفة وكيل نيابة مصرى هى أشق عمل فى العالم كله .. ولا يستثنى من ذلك إلا عمل جندى الخنادق فى الحرب العظمى !

ولننتقل إلى حديث الأدب . آه ما اشهى كلمة « الأدب » بعد كل هذه .. « المرمطة » ؟ إنى لا أملك وقتا لتذكر هذه الكلمة . لكم أعجب الآن إذ كنت فى يوم من الأيام خاليا إلى حد انفاق الوقت فى تخيل ما وراء الكتب . كم من الساعات أضعت فى الجلوس جامدا بمشارب حى « جامبتا » أنظم الأرض والسماء من جديد ، وأعيد بناء العالم طبقا لتصوراتى

ومثلى العليا . لو كنت أعلم ماينتظرنى ها هنا . . ؟ !
لو كنت أعرف أن هـذا هو المصير لكنت أشبعت نفسى لهـوا ومرحا فى باريس ، ولاقتصـدت فى كل شىء وأرحت نفسى بعض الراحة من ذلك العنـاء !
آه لتلك الحمى الخبيثة التى كنت مصابا بها . تلك الحمى التى أضاعت علىّ كل ما كان يمكن أن يظهر من صفات طيبة . الآن شفيت ولله الحمد . وهاأنت ذا ترانى شخصا غير متعجل شيئا ، مستسلما للحياة والقدر ، فليصنعا بى مايريدان !

تسألنى عن الرواية التى حدثتك عنها فى رسالتى السابقة ؟ انها ليست عصرية ولا تاريخية . ولا حتى قصة تمثيليـة حقيقية . بل . . . بل . . . لست أدرى ربمـا كانت عملا فنيا يقوم على « الحوار » لا أكثر ولا أقل . حوار أدبى للقراءة وحـدها . فان وضـعها للتمثيل لم يخطر لى على بال . ان كلمـة « التشخيص »

التى عرضتنى للاهانة فى بدايتى الأدبية مازالت ترن فى أذنى ... كلا . ان هدفى اليوم هو أن أجعل للحوار قيمة أدبية بحتة ليقرأ على أنه أدب وفكر . هذا العمل على كل حال لايخرج عن كونه Transposition artistique لسورة قرآنية ترتل فى المسجد يوم الجمعة . على أنى لا أكتمك انى ساعة كتبتها لم أكن تحت تأثير القرآن وحده . بل أيضا تحت تأثير مصر القديمة . لقد كنت قرأت الكتب الدينية : كتاب الموتى والتوراة والأناجيل الأربعة والقرآن ان مصر القديمة كلها كانت واقعة تحت سلطان كلمة واحدة ملكت عليها فكرها وقلبها وعقائدها ومشاعرها : البعث . وهى كلمة ذات أربعة أوجه كالهرم : وجهها الأول : الموت . ووجهها الثانى : الزمن . ووجهها الثالث : القلب . ووجهها الرابع : الخلود . . .

هل أنا على حق فى تفسير الكتب السماوية تحت ضوء مصر القديمة ؟ ومن منها أصل الأديان ؟ إذا كانت الأديان السماوية هى الحق ، فلا بد أن تكون قديمة قدم الحق . أو على الأقل قدم الانسان. فالأنبياء اذن لم يخلقوا الحق خلقا بظهورهم ، ولكنهم كشفوا عن وجوده الأزلى . فلا غرابة اذن فى البحث عن منابع الأديان السماوية فيما كان قبلها من وثنية ، والبحث عن منابع الوثنية فى قاب الانسان من يوم ظهوره على الأرض ! . . .

لو كان المسكين ايفان حياً لناقشنى فى كل ذلك بما يملأ أسفارا ... على أى حال ، لا تشغل بالك كثيرا بروايتى هذه . فهى ليست عملا ذا بال . ولا أحسبها تمتاز عن مخطوطاتى السابقة فى كثير أو قليل . إلا أن تكون هى أول عمل أردت أن أستوحى فيه « القرآن » كما أردت قبل ذلك استلهام « ألف ليلة

وليلة » و « المجتمع » المصرى قبيل الثورة ... الخ ...
وبعد . فما من جديد فى حياتى هنا ، على أنى لا أريد
أن أختم هـــذه الرسالة قبل أن أخبرك أنى سعيد
لتشرفى بمعرفة « موزار » معرفة أوثق عرى من تلك
المعرفة السريعة العابرة التى بدأت فى باريس . فلقد
هبط « البانسيون » رجل انجليزى من نوع Bidlake
أو Burlap فى قصة هكسلى . وأتى معه « بألبوم »
اسطوانات السانفونيات رقم ٤٩ و ٥٠ و ٥١ و « سوناتا »
رقم ١٠ فسرعان ما تعارفنا بالطبع . . . وصرنا نتبادل
الاسطوانات . أنا أعيره بيتهوفن وهو يعيرنى
موزارت . آه أى جمال وأى سعادة أن تعيش بجوار
هذا الطفل الآلهى : موزار ! . . ؟

طنطا فی ...

عزيزی اندريه

مضت شهور ولم أتلق منك كلمة واحدة . ماذا بك ؟ ماذا حدث لك ؟ إنی مع ذلك لا أستطيع أن أكف عن الكتابة اليك . إلى من غيرك أفضى بهواجسى . أريد أن أتنفس وأتكلم وأجد انسانا يصغى إلى حديثى . إلى ذلك النوع من الحديث الذى لا أجرؤ على الاشارة إليه فی بيئتى القضائية . الويل لرجل القضاء الذى يستكشف زملاؤه فيه أنه أديب . ان لنا مجلسا يضمنا كل مساء فی قهوة نظيفة فلا نتحدث فی غير تصرفاتنا اليومية فی القضايا . فمن

ظهرت عليه بوادر الفكر فى حديثه أو عوارض الفلسفة فى خواطره حملقوا فيه ثم تهامسوا « اتركوه هذا أديب ... سامحوه هذا فيلسوف .. » وذكروها له وعدوه بعد ذلك ممن لا يوثق فى تقديراتهم أو تصرفاتهم القانونية . فاذا لم يجدوا مطعنا فى عمله فهم على الأقل متبرمون به وبحديثه . ولن أنسى ذلك الزميل الفاضل قاضى المحكمة الكلية الذى كان مشغوفا بالتاريخ الاسلامى... وعلى الأخص تاريخ الفاطميين . لقد كان فى الواقع واسع الاطلاع فيه .. طلى الرواية له . فلم يتركه زملاؤه يتحدث فى هذا الموضوع قليلا حتى انصرفوا عنه وصاروا بعد ذلك كلما أقبل عليهم هذا الزميل نهضوا متهامسين : « هلموا بنا ... هلموا بنا . . صاحب الفاطميين حضر ! » فما كان يمكث فى استقباله والاستماع إليه غيرى أنا . فلقد كنت حقاً أجد عنده حديثاً يسرنى ويلذ لى ..

وتكرر هذا الأمر حتى كدت أتهم أنا أيضا ويذكر اسمي معه في معرض التندر والسخرية ! . . وجاء يوم كادت تقع فيه كارثة : فلقد هبط المدينة قاض كان من زملاء دراستي بمدرسة الحقوق في القاهرة . وقيد اسمه معي بجدول المحامين في يوم واحد . . . وشهد انصرافي بعدئذ إلى التأليف المسرحي . وحضر تمثيل بعض رواياتي . . . فما كاد يراني بين الحاضرين في المجلس حتى اتخذ مكانه بجواري . . وهو يصيح بي : « أين أنت وأين لياليك ورواياتك التي كانت منذ عشرة أعوام تملأ المسارح ! » فحملق فيه رئيس المحكمة ورئيس النيابة وكانا — لسوء حظي — بين الحاضرين . . وقالا : « يعني إيه ؟ ! كان في التشخيص ؟ ! » فغمزت صاحبي . . فنظر إليّ ورأى في عيني آيات التوسل والألم والضراعة . ففهم الموقف وأدرك غلطته وحاول إصلاحها قائلا : « لا . . قصدي انه كان يميل

إلى مشاهدة التمثيل فى ليال الفراغ » . . ثم انفردت به أفهمه أن ذلك الماضى قد دفن . وإنى الآن من أعضاء الأسرة القضائية المشهود لهم بحسن السمعة . فاياك أن تلصق بى كلمة « أدب » أو كلمة «فن» أو حتى كلمة « فلسفة » . . ! أرأيت يا أندريه فى أى عالم أعيش الآن ؟ هل كنت تصدق أن ذلك يحدث لى ؟ . . . أأدركت الآن مقدار حاجتى إليك وإلى الهمس بالحديث معك من خلال قضبان حياتى الحاضرة . ؟ ! اكتب إلىّ . . . اكتب إلىّ . . . اخبرنى بأحوالك كلها . . . كيف حال « جرمين » ؟ وكيف حال الصغير « جانو » ؟ فى أى مدرسة هو الآن ؟ إنى أتخيله دائما طفلا صغيراً يلعب بسيفه الزائف ومدفعه الصفيح . . . ؟

دسوق (غربية) في . . .

عزيزي اندريه :

وا أسفاه ! . . مضى عام وأنا لم أزل في انتظار رد منك . رد صغير ينبئني بأن الحبل بيننا لم ينقطع . يظهر انه انقطع . . ذلك الحبل الذي كان يربط أحدنا إلى الآخر ونحن هائمان في جليد ذلك القطب « الفكرى » المرتفع ! . . ترى أين أنت الآن ؟ « اتركتني وحدى وذهبت عائداً إلى المجتمع ؟ . . هل فعلت ذلك ؟ أما أنا فأني أقاوم . . . أقاوم بكل مالدى من قوة وعزم . . إني أكتب إليك الآن من مدينة صغيرة على النيل . تدعى « دسوق » . هي مع ذلك مركز من أهم

مراكز القطر. لقد أسندوا إلىّ أعمال نيابتها. فوجدت نفسى أمام عمل هالنى من الكثرة والخطورة. ان قاضى المحكمة لا يقيم فى المدينة .. فهو يحضر جلستية ويذهب. وبهذا صرت أنا الرئيس المسئول عن شئون النيابة والمحكمة معاً .. لقد تبين لى بعد أسابيع قليلة أنى أنا الرئيس المتصرف فى هذه المدينة كلها. فالبوليس والادارة والصحة والهندسة والرى والزراعة. وكل فروع الحكومة المختلفة تصب مشاكلها بين يدى ... حتى فيما لا يقع تحت طائلة القانون وما يكتفى فيه بالنصح والارشاد والمصالحة والتوفيق وإقرار النظام بالحسنى .. كل ذلك يحتاج إلى رأيي ولكلمتى فيه المقام الأول ... لقد شعرت حقاً بعبء المسئولية ... فدفعنى ذلك إلى العمل المضنى .. لقد وضعت نظاما دقيقاً للعمل لا أنحرف عنه قيد شعرة. إنى أعمل نهارى كله .. من الصباح

حتى الثانية بعد الظهر . . ومن الرابعة حتى السابعة . . فأخرج للنزهة ساعة فوق جسر النيل . . . تلك هى الساعة التى تسمح لى فيها تبعاتى أن أتحرر قليلا لأعود إلى نفسى وذكرياتى . . فى تلك الساعة الهادئة أسير وحدى فوق الجسر أتأمل الأمواج فى اصطفاقها الخافت . . . فتلعب فى رأسى الأفكار القديمة من جديد . . أفكار الفن والأدب . . فالتفت حولى حرصاً عليها من مفاجىء . . فلا أبصر غير الخفير النظامى يحمل بندقيته ويتبعنى عن بعد . . ليبلغنى بما يرد من إشارات مستعجلة . . حتى إذا خيم الظلام عدت إلى مسكنى فتناولت العشاء ثم نظرت فى بعض ملفات القضايا . . ثم آويت إلى فراشى فى انتظار إزعاجى نصف الليل ببلاغ عن وقوع جناية . . لقد أحصيت عدد الليالى التى انتقل فيها إلى حوادث جنائية فى هذا المركز . . فاذا هى فى المتوسط خمس

ليال . . أى إنى لا أظفر بأكثر من ليلتين فى الأسبوع أقضيهما نائماً فى فراشى كما ينام الآدميون.. إنى أؤدى واجبي دون تذمر . وأنهض بأعباء عملى القضائى بأمانة وهمة واستقامة ألحظ أثرها الحسن فى مكاتبات الرؤساء الرسمية . انهم يثقون فى تصرفاتى ثقة تملؤنى فخراً . هل كنت ياأندريه تتوقع نجاحى كوكيل نيابة ؟ ولا انا ما كنت أتوقع لنفسى ذلك . لقد ثبت لى اني رجل أمين لا يعرف الغش فى شروط اللعب . انى فى الفن كنت الفوضى بعينها . ولكنى فى عمل القضاء أنا النظام بعينه . بل انى مبالغة فى الغيرة على سمعة هذا المنصب لا أختلط بالأعيان ولا برجال الادارة ولا بأى شخص أكثر من الاختلاط الذى يدعو اليه العمل الرسمى . . لطالما سمعت بأخبار زملاء قضائيين — لم يتصلوا يوما بفن ولا بفنانين — ومع ذلك لم يبالوا ، فكانت لهم فى مراكز أعمالهم

سهرات « بوهيمية » ومغامرات نسائية . . تركت اثرا فى صحائف خدمتهم لا يمحى . أما أنا فصحيفتى نقية بيضاء . . ولقد التقيت ذات مرة بالنائب العام فقال لى انه يعدنى من خيرة وكلائه عملا واستقامة وسمعة . فأنا اذن يا اندرية كما ترى . . . أسير بخطى ثابتة نحو الاطار النهائى الذى يريد أن يحبسنى فيه المجتمع . . ماذا بقى لى من الفن والفنان بقبعته السوداء ذات الاطار العريض ؟ ! . . كنت منذ أشهر بالقاهرة فقابلنى أحد زملاء الدراسة يشتغل الآن بالتجارة ، ولا يعرف من أمرى شيئاً . . فما ان تفرس فى وجهى وهيئتى حتى قال لى : « ماذا تعمل فى الحياة ؟ لا بد انك من رجال القضاء ؟ ! » فدهشت وسألته : « كيف عرفت ؟ » فقال لى : « شكلك وهيئتك وسيماؤك » ! . . عجبا . . أهكذا المهنة قد طبعتنى بطابعها . . ورن عندئذ فى أذنى صوت : « ايما دوران »

يوم قابلتني أول مرة وتفرست فى وجهى قائلة لى : « ماذا تعمل ؟ لابد انك فنان فى مونمارتر ! » . . وا أسفاه . . مات ذلك الفنان . . وحات روحه فى جسد رجل قانون ! . . أترى الفنان يا اندريه يبعث من موته يوما ؟ . . ولكن كيف ؟ كيف يحدث لى ذلك ها هنا . . كيف يحدث ذلك لقضائى منظور إليه نظرة الرضا والاحترام . كيف السبيل إلى الفن الآن . والمجتمع كما ترى قد هيأ لى مكانا فى أحضانه لا أستطيع منه فكاكا . . . أندريه . . . أندريه . . . أخشى أن يحطمنى المجتمع . . يحطم الفنان فىّ . . . ربما كان قد حطمنى وكسرنى . . . ولكنى أقاوم . . . منذ أسابيع وأنا أتلقى من أهلى خطابات يغروننى فيها بالزواج . . ويذكرون لى أسماء لامعة فى الثروة والجاه . . ويتهموننى بالحمق والغفلة والعته إذا خامرتنى فكرة الرفض . . . ويظهر أن كل شىء قد

أعد . وأن أصحاب هذه الأسماء قد قبلوا . فالمناصب القضائية — شأنها فى مصر شأن فرنسا — مزيتها الكبرى هى سعرها الممتاز فى سوق الزواج . فماذا تقول فى ذلك ؟ انهم ينتظرون قبولى .. يكفى يا أندريه أن ألفظ كلمة « نعم » ليضع المجتمع أصفاده فى يدى الأخرى الطليقة ، ويجرنى نهائيا إلى المصير المحتوم . لقد قلت لهم « لا » بأعلى صوتى . . وهم مشدوهون لا يعرفون السبب . « لا » . . . تلك هى الصيحة الأولى لمقاومتى اليائسة .. يجب أن أقاوم وأن أجاهد .. أليس كذلك يا أندريه . . أأرضى أن تطوينى الحياة وترغمنى على ما لا أريد .. فيم كان اذن جهادى الطويل فى سبيل الفن ؟ فيم كانت الأعوام الطوال التى أنفقتها قراءة واطلاعا وتحصيلا وتكوينا وممارسة لألوان الفن وأنواع العلم وفروع المعرفة .. لقد أردت أن أكون كاتبا وسأكون .. ولكن .. ولكن كيف

ياصديقى أندريه ؟ إنى أخط إليك هذا السؤال بصوت مرتفع فى سكون هذا الليل . . تحت هذا المصباح الضئيل المستيقظ انتظاراً لجرائم الناس . كيف السبيل يا أندريه ؟ إنك تعلم أنى عملت وجهدت لامتلاك ناصية فنى . . ولم أكتف ببدايتى الأولى منذ عشر سنوات . . فتناسيتها . . وانطلقت من جديد أكتب وأمزق وأكتب وأمزق . . ولم يسلم من التمزيق أخيراً سوى تلك المخطوطات التى حدثتك عنها . . أظن أنى قد أعددت نفسى اعداداً كافياً . . وأظن أنى قد جاوزت السن التى يحسن فيها بأديب أو فنان أن يظهر نهائياً ليغرس قدمه فى ميدان فنه ، ويعرض ثماره على اهل وطنه . . ولكن مع ذلك . . أنا فى شك يا اندريه . من ادرانى ان فنى يستحق النشر الآن ؟ لم لا تقول انى متسرع . لطالما تسرعت من قبل . الا يحسن بنا التريث ؟ قد

تسألنى الى متى ؟ لست ادرى إلى متى . ان الفن حقا طويل . وإذا تريثت اكثر من ذلك فسأظل طول حياتى اتريث واتشكك . . ولكن من جهة اخرى إذا اخرجت للناس شيئا تافها ، فماذا يكون جوابك؟ ان الانتظار إلى آخر العمر لأهون على نفسى الآن من اخراج عمل فنى ناقص . انى لم اعد الشاب الطائش الذى كنت تعرفه فى باريس . . . انى الآن أكره العجلة . وابغض النشر لمجرد النشر . واقدس الفن حقيقة . وانزه اى عمل فنى عن الظهور مادمت ارتاب فى أمره بعض الارتياب .. كلا .. فلنبق كما نحن يا سيدى . وحسبى ان انظر فى مخطوطاتى من حين إلى حين .. لأستخرج فى كل مرة نقصا جديدا . قد تدهش إذا قلت لك انى صححت وعدلت وبدلت فى كل مخطوطة ، وقمت « بتبييضها » ونسخها بنفسى اكثر من أربع مرات . اجل يا اندريه .

لكل مخطوطة عندى كبرت او صغرت أربع نسخ version مختلفة بخط يدى.. على أننا إذا طرحنا جانبا مسألة النضج الفنى لعملى وهل تم قليلا او لم يتم ؟.. ومسألة الاقدام اوالتريث وأيهما الأصوب ؟ومسألة الثقة او الارتياب وايهما الأرجح . فان هنالك مسألة أخرى يجب ان لا تغيب عن خاطرك: المجتمع الذى حولى الآن . كيف السبيل إلى الخروج من إطارى القضائى ؟ ؟. كيف أنشر فنا دون أن اتعرض لسخرية الزملاء وخيبة أمل النائب العام وفجيعة الأهل والخلصاء ... آه يا اندريه معذرة !.. انى افكر الآن تفكيراً سخيفا ... هذا كلام غير خليق بفنان !.. ولكن هل أنافنان ؟.. أتراها القبعة السوداء هى التى كانت تملأ رأسى بهذه الأوهام ! لقد خلعتها كما تعلم منذ زمن بعيد.. وها انذا اليوم اتشح بالوسام الأحمر الأخضر..

ولم أعد أسمع احدا ينعتني بالفن .. ربما قلت لى : يكفى ان تصغي إلى الصوت الصاعد من أعماق نفسك !.. أجل يا اندريه .. ولكن نفسى الآن ينخر فيها الشك . وما عدت اصدق لها كلاما ؟ .. واخجلاه ! . . لست ادرى كيف يتكلم هذا الكلام رجل يتشبث بالفن . . حقا . . يجب ان أو من بالفن ... الايمان بالفن هو « التعويذة » التى تفتح لى الطريق . . انى أومن بأبولون .. أومن بأبولون إله الفن الذى عفرت جبينى أعواماً فى تراب هيكله . . . انه ليعلم كم جاهدت من أجله وكم كافحت وناضلت وكددت ! باسمه أخوض المعركة الكبرى وأنازل كل مجتمع وكل حياة وكل عقبة تحول بيني وبين فنى الذى منحته زهرة أيامى التي لن تعود ... ؟

893.7H127
Z7

BOUND

JUL 18 1957

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58870458
893.7H127 Z7 Zahrat al-umr/
RECAP